عبد الفتّاح كيليطو

أُنبئُوني بالرّؤيا

رواية

ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي



دار الآداب

عبد الفتّاح كيليطو

أَنْبِئُوني بالرؤيا

ترجمة

عبد الكبير الشرقاوي

رواية

دار الآداب ـ بيروت

أَنْبِئُوني بالرؤيا

أَنبِئوني بالرؤيا

عبد الفتّاح كيليطو/ كاتب مغربي
الطبعة الأولى عام 2011
ISBN 978-9953-89-187-3

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
e-mail: rana.adab@hotmail.com
Website: www.adabmag.com
Face Book: dar al adab

«سَمُّوني إسماعيل»

هرمان ميلفيل، **موبي ديك**

«هكذا يبدو مظهر شخص يقرأ: مظهر لا أحد».

بوتو شتراوس، ***الإهداء***

إيدا في النافذة

أحبّ القراءة في الفراش. عادة مكتسبة منذ الطفولة، لحظةَ اكتشاف **ألف ليلة وليلة**.

كنت أرقد في غرفة جدّتي، على أريكة موضوعة أسفل سريرها. أثناء مرض من أمراضي ـ لا بدّ أنّه كان من الخطورة كي تتأبّد ذكراه عند الأسرة ـ، كنت على الدوام غائصًا في رقادٍ سُباتي. وفي اللحظات القليلة التي أستردّ فيها وعيي، أسمع أصوات الزائرات المستخبرات عن حالي. ما إن أدرك أنّي موضوع همسهنّ حتى أغوص ثانية في النوم.

لمّا أخذت في التعافي، رفعن من صوتهنّ وتكلّمن عن هذا وذاك من الأشياء. لم أعد محور أحاديثهنّ. تكدّرتُ لذلك، فأخذت أتحسّر على المرض، لكن لا جدوى من التصنّع، كنت أعرف بالتجربة أنّ جدّتي لا تنخدع أبدًا بأكاذيبي. وفي العمق، ما كنت بحاجة إلى المراوغة، فما زلت واهنًا، وقد تطرأ انتكاسة في كلّ لحظة.

في هذا الظرف جذب انتباهي كتابٌ موضوع بالقرب منّي، **ألف ليلة وليلة**، في طبعة بيروت، المسمّاة أيضًا بالكاثوليكيّة. ماذا كان يصنع

في بيت لا يهتمّ فيه أحد بالأدب؟ من الذي جعله قريبًا من أريكتي، في متناول يدي؟ من الظاهر أنّ إحدى الزائرات قد نسيته ولم ترجع لاسترداده، لذا ظلّ قرب فراشي طوال نقاهتي. كنت أجهل ذاك الوقت أنّ الفقرات الجنسيّة قد استُبعدت منه بعناية، لكن لم ينل ذلك من قوّة الحكايات، وظلّ جانبها الفاضح كاملاً. وإلّا لماذا انتابني شعور مبهم بأنّه لا ينبغي لي أن أقرأه؟ إذا ما دخل شخص إلى الغرفة، أخفيه تحت الأغطية، لا سيّما إذا كان والدي. هكذا كنت إذًا أتصدّى للقراءة، للأدب، تحت شارة المرض والإثم. ذلك كان الكتاب الأوّل الذي حاولت قراءته، الكتاب العربيّ الأوّل، الكتاب الأوّل بلا زيادة.

كنت أقرأ في الفراش، على ضوء النهار... نقيض شهرزاد التي تروي في الليل وتسكت في الصباح. كنت، بقطعي القراءة في المساء، أخالف إشارتها الضمنيّة وأعكس نظام الأشياء.

والحال أنّي بقدر ما كنت أقرأ ويمضي الوقت، تتحسّن حالي. ولمّا بلغت الصفحة الأخيرة، شُفيت تمامًا. وكأنّ للأدب فضيلة علاجيّة. فإن لم يكن يشفي أمراض البدن، فهو يسكّن آلام النفس، هذه إحدى ثيمات كتاب **الليالي**. أميل إلى الظنّ أنّني استعدت الصحّة بفضل شفاعته؛ بفضلها هي أيضًا، الزائرة الغامضة التي نسيته عند رأس فراشي.

كلّ هذا مؤثّرٌ للغاية، لكنّ شكوكًا تنبثق، مشوّشة صفاء اللوحة. أفعلاً قرأت هذا الكتاب في الطبعة البيروتيّة المهذَّبة؟ يروق لي اعتقاد ذلك، الله يعلم لماذا، لكن ما حقيقة الأمر؟ لنذهب أبعد: أقرأته وأنا طفل؟ ربّما أكون قد حاولت، ولمّا فطنت لثرائه المبهظ، تخلّيت عن قراءته بعد بضع صفحات، بضعة سطور. الكتاب الأوّل؟ كم مرّة زعمتُ

ذلك، لكن أليس ذلك لأنّه بالعربيّة وأنّني أشقى مجتهدًا لأربط نفسي بما لست أدري من أصل؟

أمّا الزعم بأنّني كنت مريضًا لمّا اكتشفته، فذلك استيهام محض. استحضار ما لست أدري من مرض، استثارة الشفقة على الذات، استعادة رؤيتي طفلاً راقدًا على أريكة تحت سرير جدّتي... ألست منهمكًا في تزويق الأشياء، موحيًا بأنّ الحكايات قد استرجعت لي صحّتي؟ مماثلاً نفسي من دون حقّ بشهريار، الملك المجنون الذي شفته شهرزاد... ومن ثم سيناريو تلك الزائرة الغامضة، القارئة الناسية للكتاب... في الواقع، لا امرأة كانت تقرأ في ذلك الزمان فيمن حولي، ربّما آيات من القرآن، لا **الليالي** بالتأكيد.

أخيرًا، الإيحاء بأنّي، ببلوغ النهاية، قد شُفيت تمامًا... هذا من جانبي اختلاقٌ مغرض. الواقع أنّني لن أكون قد شُفيت، بل سأكون قد متّ. منذ ألفيّة من السنين، ألم يتردّد القول إنّه لا تنبغي قراءة **الليالي**، أو أن لا يُقرأ سوى شطر منها؟ الذين لم يتّبعوا هذه النصيحة دفعوا الثمن غاليًا. فقد ثبت أنّهم جُنّوا، أو وضعوا حدًّا لحياتهم، أو ماتوا من السأم، حرفيًّا. غاب عنّي هذا في ذلك الزمان، لكن لا بدّ أنّني كنت قد استشعرتُ، غريزيًّا، الخطر.

بيد أنّني، بفضل هذا الكتاب، دُعيت إلى الولايات المتّحدة، أو بتدقيق أكبر بفضل مقال (هو في الأصل بحث لنيل شهادة الماستر)، «النوم في ألف ليلة وليلة». كان الأستاذ ك. قد أوصى بنشره، لدهشتي العظيمة، لأنّني كنت أعتقد أنّه يكرهني. كان ينتقدني كلّ الوقت ويُبدي شكّه إزاء مشاريعي، لكن، خلافًا لكلّ توقّع ودون أن ألتمس منه ذلك، قام بنشر بحثي في Studia Arabica (في أحلامي الأشدّ هوجًا، لم أكن

أعتقد استحقاقي شرف ورود اسمي في فهرس هذه المجلّة الرفيعة). زيادة على هذا، زكّى طلبي منحةَ شهرين لدى مؤسّسة فلبرايت. بطريقة مفاجئة، فتح لي النوم أبواب أميركا...

في المطار، كان سائق ينتظرني، في يده لافتة كُتب عليها اسمي بحروف عريضة. أثناء المسير إلى النادي حيث سأُقيم، لم نتبادل كلمة. كان المطر يهطل، والمنظر الذي يتتالى دميمًا، بنايات كئيبة، أشغال في طور الإنجاز، رافعات هائلة... لا إراديًا، أخرجت علبة سجائري، ولمّا أدركت هفوتي، بدأت أدسّها عندما أشار لي السّائق، الذي أبصر حركتي في عاكس الرؤية، بأنّه يأذن لي في التدخين.

كان المسار يبدو لي أنّه لا ينقضي، وبدأت أندم على سفري، فيما البارحة فقط كنت متحمّسًا لفكرة اكتشاف أميركا. لم يكن السائق راضيًا بدوره: تاه، ولمّا لم يهتد إلى طريقه توقّف ليفحص خريطة، على ما يبدو دون نتيجة، لأنّه سار حتى محطّة وقود حيث استعلم. أخيرًا، بعد دوران طويل، أنزلني في النادي.

رتّبت أمتعتي في الخزانة الحائطيّة الفسيحة بغرفتي، وضعت ملفّات، ومدوّنات، وأقلامًا على المكتب. وإذ لم يكن لديّ سوى كتابين أو ثلاثة، تردّدت لحظة في وضعها على الرفوف المعدّة لهذا الغرض، لفرط ما تبدو شاذّة وسط الفراغ. ألحقتُ بها مستلّات مقالتي عن النوم، ومخطوطة بحث الدكتوراه عن الفضول المحرَّم الذي كنت في آخر مراحل إنجازه، ومعجمًا إنجليزيًّا، ومعجمًا ثنائيًّا، وطبعة شعبيّة من **الليالي** في أربعة مجلّدات، وأخيرًا L'Ile mystérieuse لجول ڤيرن التي لا تفارقني أبدًا، والتي أقرأ منها دائمًا قبل أن أنام. ولمّا ظلّت المكتبة فارغة بشكل مُحبِط، آسيت نفسي بأنّها حال موقّتة: فقد كانت لي نيّة شراء أكثر ما أستطيع من الكتب.

بعد إقامتي في الغرفة، لم أعد أدري ما أفعل. نزلت إلى بهو الاستقبال لأتلفن إلى الأستاذ مايكل هامْوِست. أخبرني أنّه سيأتي لأخذي إلى العشاء.

حين حضر، كلماته الأولى هي قوله إنّني لا بدّ مرهق بعد هذا السفر الطويل، ولذا قرّر أن يعفيني في هذه السهرة من الحديث بالإنجليزية.

ـ «سنتحدّث بالفرنسيّة».

لم يفكّر بتاتًا في حديث بالعربيّة التي كان، مع ذلك، يعرفها. استحسنت التأجيل الممنوح لي، لكن مع اليقين بأنّ مضيفي سينفّذ تهديده في الغد فلا يخاطبني إلّا بلغته. كان يلحظني بنوع من القلق، متسائلاً دون شكّ كيف سأجد الخلاص أمام طلبته. كانت فرنسيّته ضعيفة، لكن بالتأكيد أفضل من إنجليزيّتي. عدم التوازن كان جليًّا وهذا كان يمنحه تفوّقًا واضحًا.

لمّا وصلنا أمام بيته، لاحظت على لوح الباب ملصقًا لمنع التدخين. ارتبتُ في أنّه قد اقتناه اليوم بالذات وثبّته على بابه لأجلي تمامًا، قبل أن يأتي لأخذي. لا بدّ قد بلغه صيت إدماني على التدخين. ما إن يعود بي إلى النادي، حتى يزيل الإعلان المقيت.

استقبلتني زوجته بكثير من اللّطف. كانت جدران حجرة الاستقبال مكتسية بالكتب. ولأقول شيئًا لطيفًا، همستُ:

ـ «إنّها مكتبة بورخيسيّة».

اتّسعت عينا السيّدة هاموست دهشةً.

ـ «تعرفُ بورخيس»!

أكّد لها زوجها أنّني قد قرأت كتابات المؤلّف الأرجنتيني عن **الليالي**، وهو قول محيّر، إذْ يوحي أنّني، باقتصاري على الأعمال التي تهمّ تخصّصي، لم أعبأ بالباقي. تدارك الأمر بإخباري أنّ زوجته مُتَأَسْبِنة، وفكّرتْ لحظة في دراسة تأثير **الليالي** على كتّاب أميركا اللّاتينية.

ـ «لا على بورخيس، إذ توجد سلفًا دراسة أو دراستان جيّدتان في هذا الموضوع، وإنّما على كتّاب آخرين، مثلاً مانويل سكورزا ومؤلَّفه «طبول في الليل»: السارق الذي يُحسن التحدّث إلى الخيول، ويغريها بأن يهمس لها، ليلاً، أشياء في آذانها. كان يمنّيها ببرارٍ خصيبة وإناث رائعات؛ فتتبعه حينئذٍ راضية».

تعهَّدُ السيّد هاموست بأن لا يحادثني هذا المساء إلّا بالفرنسيّة لا يعني بالطبع زوجته. وهكذا كان عليّ أن أتواصل معها بالإنجليزيّة بالضبط، لمحاولة تحديد اللغة التي كان يستعملها السارق للحديث إلى الخيول. لغته أو لغتها؟ ومن موضوع لآخر، تناولنا مسألة خطاب البهائم في الليالي، وذكرنا صاحب الزرع الذي كان يفهم لغة الحمار، والثور، والكلب، والديك؛ وتوقّفنا قليلاً عند القرد الخطّاط. وبتداعي الأفكار، تحدّثنا عن الحصان الطائر الذي جعل أحد الدراويش القرندليّة الثلاثة أعور، وكنّا في التساؤل إن كانت توجد حكاية تروي تواصلاً كلاميًّا بين رجل وحصان حين دقّ أحدٌ جرس الباب.

دخلت امرأة ذات جمال مذهل. قدّمها لي السيّد هاموست تحت اسم إيدا (أو آدا، عايدة، إيدّا)، كان سيذكر اسمي عندما أشاحت بوجهها وانخرطت مع السيّدة هاموست في نقاش غاب عنّي موضوعه. كانتا تضحكان، وتهتفان، تحت نظرة السيّد هاموست المتهلّلة والمُعجَبة وأمام مظهر هذه السعادة الصاخبة، زاد من إحساسي بالضياع أنّني لم

أكن أفهم شيئًا ممّا تقولان، ولا كلمة واحدة.

كان العشاء ممتازًا. نسينا الخيول ودار الحديث عن الحبّ. بدا لي أنّي سمعت السيّد هاموست يقول ذات لحظة:

«لا أفهم لماذا يبذل أبطال الروايات كلّ هذا العناء ليحصلوا على امرأة».

بعد التحلية، عدنا إلى حجرة الاستقبال. كانت إيدا تتلافى منهجيًّا النظر إليّ، وتقاطعني كلّما حاولت أن أفوه بكلمة. والسيّد هاموست في منتهى الرعاية لزوجته، ويكثر من علامات الحنان والحبّ التي تتلقّاها بابتسامة عريضة. كنت مُتعَبًا وعيناي تَخِزانني، أتعجّل العودة إلى النادي، لكن بدل العودة بي، استمرّ السيّد هاموست في تحسّس شعر زوجته، ثم متجاسرًا، قبّلها طويلاً على فمها. أغمضت عينيها وسحبته نحو الأرض، تمامًا قرب الفوتيل حيث كنت أجلس. شرع آنذاك في دسّ يده تحت تنّورتها. نهضت إيدا، ومقتربةً منّي، ربتت على كتفي. فتحتُ عينيّ: السيّد هاموست هو الذي كان مكبًّا عليّ، قائلاً: «أعتقد أنّ عليّ أن أُعيدك إلى النادي». كان يبدو منشغلاً. نهضت إيدا، عانقت المضيفين وانصرفت، دون نظرة لي. في الخارج، كان الجوّ باردًا جدًّا.

في الغد، خرجت باكرًا من النادي حتى أتمكّن من التدخين. سرعان ما ذرعت الشوارع القليلة التي تحاذي الحرم الجامعي.

لم أنم جيّدًا، بسبب التفاوت الزمني، لكن أيضًا لأنّ ذكرى البارحة تعذّبني. أنْ أنام وأنا مدعوّ، أيّ مضايقة لمضيفيّ! لا أتذكّر تمامًا إن كنت قد أكلت. ثم ذلك الحلم السخيف. يعلم الله ماذا كان

يكشف عنّي، أفكار مريضة تكتتم فيه. كم وقتًا دامت غفوتي؟ أكنت قد قلتُ شيئًا؟ ليس ذلك بالمستحيل. أمّا عن انصرافي الأهوج... هل حيّيتُ السيّدة هاموست وإيدا؟ لا بدّ أنّهما كانتا قد اكتنهتا مضمون حلمي ورغباتي غير اللائقة.

مهما قلت لنفسي، في انتفاضة تمرّد، لو لم يمنعوني من التدخين، لكنت مع ذلك قد قاومت النوم، فتصرّفي يظلّ شائنًا. مقامي يبدأ تحت أنحس الطوالع... هذه العادة لديّ أن أغفو عند الناس! النوم اللذيذ، كان يقول هوميروس... كم مرّة، خلال سهرة، استفقت مذعورًا، رأسي على كتف جار متضايق ومتعاطف، متواطئ أيضًا: قهقهة عامّة ترافق استفاقتي. ومع هذا، يستمرّ أصدقائي في دعوتي، رغم تلك العادة السيّئة، ماذا أقول، بفضلها! إنّها فرجة بالنسبة لهم، ينتظرونها أحيانًا بنفاد صبر. «ما أكثر ما نطقتَ به من الأشياء، لكن اطمئنّ، لن نردّدها، هذا سيبقى بيننا»!

ليس مصادفة إذن أن أكون قد كتبتُ دراسة عن النوم! كنت أتحدّث فيها عن نفسي بطريقة غير مباشرة وأنا أعالج مسألة أكاديميّة. الموضوع خصب جدًّا في **الليالي**: شخصيّات تخضع للنوم بتناول مخدّر، وأخرى يُغشى عليها، وأخرى أيضًا تُدفن حيّة. النائم اليقظان لفت انتباهي، لكنّ حكاية عزيز هي التي شغفتني؛ عزيز أثناء انتظاره لمحبوبته، يرتمي على الطعام بشَرَاهة ويغرق في نوم بهيمي. لمّا فتح عينيه في الغد، ألفى نفسه مرميًا وسط الشارع. كنت محظوظًا أكثر: استيقظت في فراشي.

لمّا أوردتُ في مقالتي الذنب مقرونًا بالنوم، لم أغفل أن أقول إنّ شهرزاد لو أغمضت عينيها ليلة واحدة، لكانت مقطوعة الرأس في الغد. لكنّ هذا كان مبتذلاً جدًّا. وكما يحدث غالبًا، لا تحضر فكرة جيّدة إلّا

بعد أن يكون العمل قد نُشِر أو نوقش. الفكرة الأصيلة حقًّا، رغم بساطتها المحيِّرة، لم تخطر لي إلّا فيما بعد. ما أغفلتُ أن أذكره في دراستي هو حال شخصيّة لا تنام أبدًا، الملك شهريار: في الليل وحتى الفجر، يستمع لحكايات شهرزاد؛ ثم بعد ذلك، ودون تمهيد، ينشغل بأمور مملكته. هكذا كلّ يوم. وشهرزاد؟ ماذا تصنع أثناء النهار؟ لا يقول النصّ شيئًا عن ذلك، ويمكن افتراض أنّها تنتهز المهلة الممنوحة لها لتنام، لكنّ هذه الفرضيّة، لست أدري لماذا، لا تعجبني.

لم يكن واردًا بالنسبة لي التردّد على خزانة الجامعة، كنت عاجزًا جسديًّا عن ذلك. أغبط القرّاء الذين يمكنهم العمل فيها من الصباح حتى المساء. يثيرون فيّ إحساسًا بالخطأ: جادّون، وقورون، يبدو عليهم أنّهم يؤدّون مهمّة، يدوّنون ملحوظات، يحكّون أعينهم، يمسحون نظّاراتهم، يتمطّون أحيانًا متثائبين بارتياح الذي أنجز واجبه، بينما لا أستطيع أنا التركيز على الوثيقة الموجودة تحت عينيّ. أمّا أن أدوّن ملحوظات... أدوّن ماذا بالضبط؟ لذا لا شيء يبرّر وجودي في هذا الحرَم حيث، ما إن أضع فيه القدم، حتى أتيه وأدوخ.

بيد أنّ التردّد عليها كان، أو ينبغي أن يكون، الحافز الأوّل لمقامي في الولايات المتّحدة. أن أقرأ الكتب التي لا أستطيع العثور عليها في بلدي كان هو السبب الرسمي الذي أتعلّل به في كلّ حين، مع علمي أنّ الأمر ليس كذلك. خزانة الجامعة التي تستضيفني جيّدة التجهيز، وكنت متيقّنًا أن أعثر فيها على كلّ الأعمال حول **الليالي** التي أرغب في الاطّلاع عليها منذ زمن بعيد، والتي ظلّت بالنسبة لي متعذّرة المنال: طبعة ماكسمليان هابشت، والترجمتان الألمانيّتان لگوستاف ڤايل وإنّو ليتمان، والإنجليزيّتان لإدوارد لين وجون پاين... جميعها هنا

بالضبط، أعرف ذلك، وكان هذا مُحْبِطًا. لا مفاجأة في الأفق، لا لقاء غير منتظر، لا صعقة عشق. لماذا إذن عزمتُ على هذا السفر؟ للاشيء، أو بالأحرى لأنّ آخرين قد قاموا به. رغبةٌ محاكاتيّة حقيقيّة...

ما كان عندي كثيرٌ أعمله، ومنذ وصولي كنت أحيا في العَرَضي وأسبح في اللاّجدوى. وأنا أمشي في الطرقات، تعود إليّ كلمات، قصائد عربيّة حفظتها قديمًا في المدرسة، آيات قرآنيّة، ذكريات قراءات، نكات، أغنيات أمّ كلثوم وفريد، لكن أيضًا أغان بليدة، من مخلّفات مخيّمات العطلة، وأخرى وطنيّة وحماسيّة. إذ ذاك وعيت وعيًا واضحًا بأنّني عربيٌّ. هو هذا، أن تكون عربيًّا، أن تدمدم طوال اليوم بكلمات تقليديّة موروثة. كلّ الذي كنت أكبته لمّا كنت في بيتي، في موطني، كلّ هذا يعود إليّ، ويفرض نفسه عليّ ويلاحقني. لم يكن يلهيني عن حنيني المضحك سوى منظر السناجب المنشغلة على الأرض وعلى الأشجار، متلائمة تمامًا مع محيطها.

كلّ يوم، كنت أمرّ وأكرّر المرور أمام اثنتين أو ثلاث من قاعات السينما قد لاحظتها. لم تكن تعرض سوى أفلام تافهة (حتى الملصقات كانت كابية). لم أتغيّر في هذه النقطة، جولاتي تقوم منذ الطفولة على اتّباع المسارات نفسها، قاعات السينما، مكتبات. كنت أتردّد بالخصوص على Bookstore الجامعة لأرى أغلفة الكتب الجديدة المعروضة فيه. كانت منحتي تُتيح لي شراء كتاب واحد كلّ يوم، شرط أن لا أذهب كثيرًا إلى المطعم. متعة يوميّة: فتح المجلّد الجديد، العناية بعدم إتلافه، تصفّحه، قراءة صفحة هنا وهناك، فهرس المحتويات، إلقاء نظرة على فهرست الأعلام، التأكّد، وهو فضول عبثي ـ لم أكن قد أنتجت تقريبًا أيّ شيء ـ إن كان اسمي واردًا فيه. بالطبع، كنت أعد نفسي بأن أقرأ جدّيًّا كلّ شيء ما إن أعود إلى بلدي.

غير أنّي لم أكن أقتني إلّا كتبًا موضوعها العالم العربي؛ لا أكترث تمامًا للكتب الأخرى، بل لم أكن أراها. ألم أكن في الولايات المتّحدة للاشتغال على الأدب العربيّ؟ فكرة بليدة بقدر ما هي شاذّة! لو كنت على الأقلّ قد انتهزت ذلك لدراسة الأدب الأميركيّ وتعميق معرفتي بثقافة وتاريخ هذا البلد (لم أكن أتوصّل إلى فكّ عناوين النيويورك تايمز، رموز، ألغاز، أحجيات). عوض ذلك، هبطتُ ببضاعتي الشرقيّة، سندباد دون جدارة، لأنّ السندباد البحريّ، عندما يطأ بلادًا غريبة بعد غرق مركبه، يكون عاريًا ومعوزًا تمامًا؛ رجل القطيعة، فلا بدّ له من أن يبدأ من الصفر، يُعيد خلق نفسه وخلق العالم، وإذْ يعود إلى بيته، فهو محمَّلٌ بثروات جديدة اكتسبها بجهده. كنت بالأحرى السندباد البرّيّ، حمّال بائس ينوء تحت ثقل تراث منفصم انفصامًا واضحًا عن العالم الحديث.

لم تكن ذكرى إيدا تفارقني. هل سأتعرّف عليها لو تلاقت طريقانا؟ لم أكن أتذكّر بوضوح قسماتها. أحيانًا يبدو لي أنّني ألمحها في الشارع أو على نافذة. أهي حقًّا؟ إيدا في النافذة...

أثناء زيارة المتحف رأيتها ثانية، صحبة السيّد هاموست. أبصرني هذا من بعيد، فلوّح لي. قصدت نحوهما، سعيدًا بهذا اللقاء: أخيرًا سأمحو الذكرى السيّئة لسهرة ذلك اليوم، أبدّد سوء التفاهم. لكن ما إن اقتربتُ، حتى أشاحت إيدا وطفقت تنظر إلى لوحات. خاطبني هاموست كأنّ شيئًا لم يحدث، فسألني إن كنت راضيًا عن مسكني ودوّن رقم هاتفي. شكرته على دعوتي للعشاء واعتذرت عن كوني قد نمت. مسح تفسيراتي بحركة منه، مضيفًا في سخائه أنّ ذلك قد حصل له أكثر من مرّة. كانت بعد ذلك لحظة من الصمت المُحرَج. كان ينبغي لي

الانصراف، وبدقّة أكبر الانسحاب. صافحت هاموست. كانت إيدا توليني دائمًا ظهرها، مستغرقة على ما يبدو في تأمّلها.

لو كنت على الأقلّ أعلم لماذا تمقتني. أو بالأحرى الأمر واضح: لم تغفر لي نومي. لم ألعب دورًا بطوليًّا لمّا نمت، أفسدت أوّل لقاء، تمامًا مثل التعيس عزيز الذي لم يعرف كيف ينتظر عشيقته. غير أنّ هذه قد منحته فرصة ثانية. لن أحظى دون شكّ بهذه النعمة، لكن لو منحتنيها إيدا، فلن أنام، لن آكل، سأتناول كثيرًا من القهوة، وأتلافى البقاء جالسًا، سأنهض من وقت لآخر لأمشي بضع خطوات وأحافظ على يقظتي، سأقاوم ببسالة ضدّ النوم وأظفر في هذا الاختبار الجديد.

عند إمعان التفكير، من المرجّح أنّ لا دخل لنومي في احتقارها لي. في الواقع قد أبدت لي عن لامبالاتها قبل ذلك بكثير، ما إن أبصرتني. كانت تحاول دون شكّ إخضاعي لنمط آخر من الاختبار: أن أقبل بإذلالي، وأستزيد منه، ولا أتمرّد وأتقبّل كلّ ما يصدر عنها، دون أن أطرح على نفسي أسئلة، ودون أن أطرحها عليها، ولا على أيّ أحد. سأعاين أمورًا غريبة ولن أحاول فهمها. محظور عليّ استيضاح سلوكها، وعليّ انتظار أن تشاء هي الكشف عن نفسها! كنت مسوقًا إلى تجربة صوفيّة حقيقيّة...

أحاول أن أتذكّر ما كانت قد قالت أو فعلت أثناء العشاء، موقنًا أنّ مستقبلي معها مرتبط بطريقتي في تأويل العلامات. قد تكون بعثت لي منها ما لم أُحسن تأويله ولذلك كانت غاضبة!

على أيّ حال، كنت عازمًا على ألّا أتحدّث عنها مع السيّد هاموست، إمّا كبرياءً، وإمّا لأنّي كنت أخشى، في العمق، أن أعرف الحقيقة. وفيما عدا الأسباب التي عرضتُها لتفسير احتقار المرأة، لا بدّ

من وجود سبب لم يخطر ببالي، أو لم أرغب حقًّا في معرفته، لسبب غامض.

شيء مع ذلك أكيد: تعرّفتُ عليها حقًّا في المتحف وصار وجهها مألوفًا لديّ. لا يمكنني، في المستقبل، أن أمرّ بقربها دون الانتباه لها. لكن كيف أتصدّى لها؟ وماذا أقول لها لنفي التهمة عن نفسي؟ أتكلّم عن سفري الطويل في الطائرة وتعبي؟ الاعتراف لها بالحقيقة، أي إنّني يأخذني النوم عند الناس الذين يدعونني؟ أستحضر المنع من التدخين؟ لا، لن أقول شيئًا من كلّ هذا، ينبغي نسيان الحادث، من الأفضل السكوت عنه. أحادثها مع ذلك في شيء آخر، لكن ماذا؟ أدعوها إلى محاضراتي؟ لا، ليس هذا من اللباقة. أهدي لها نسخة من دراستي عن النوم؟ لن تكون فكرة سيّئة: سيلطّف هذا من الجوّ؛ ما إن تنظر إلى العنوان، حتى تدرك التلميح وسيُطوى الحادث. لكن كنت أعلم أنّها قادرة على رفض هديّتي.

كنت أتردّد كثيرًا على بائع كتب قديمة عجوز. أنزل بعض الدرجات وأجد نفسي في قاعة متوسّطة الاتّساع، ضئيلة الإضاءة. لم تكن الكتب الموجودة فيها تجذبني، باستثناء واحد منها، ترجمة السير رتشارد فرنسيس بيرتون لـ **ألف ليلة وليلة** في عشرة مجلّدات (١٨٨٥ ـ ١٨٨٦)، إضافة إلى الملحق في سبعة (١٨٨٦ ـ ١٨٨٨).

طوال سنوات، حلمت بقراءة هذه النسخة التي يثني الجميع على قيمتها، وتشكّل مرجعًا لا بدّ منه في حدّ ذاتها(«لم تفقها ترجمة أخرى حتى اليوم»، كما نقرأ أحيانًا)، لكن أيضًا بفضل الهوامش الهامّة المرفقة بها وإلى «Terminal Essay»، وهي دراسة موسّعة، يؤكّدون أنّها ثمينة جدًّا لمعرفة **الليالي** ومظاهر عديدة من الثقافة العربيّة على السواء.

بورخيس يقدّرها تقديرًا عظيمًا، وأنا متيقّن أنّ محاولاته عن **الليالي** ما كانت لتكون كذلك لو لم يقرأ بيرتون. بل كان الأستاذ ك. يذهب أبعد ويؤكّد أنّ أعمال المؤلّف الأرجنتيني بأكملها تتحكّم فيها قراءة بيرتون: «يدرسون تأثير **الليالي** على هذا المؤلِّف، ينبغي بالأحرى الحديث عن افتتانه بالكابتن بيرتون».

فيما مضى، كنت قد حاولت عبثًا الحصول على هذه النسخة. صحيح أنّني حاولت ذلك برخاوة، دون إلحاح. كنت أشعر شعورًا غامضًا أنّ فرصة قراءتها لن تُتاح لي أبدًا، أنّها ستظلّ دومًا بعيدة عن متناولي، وفي الجملة، أنّي لا أستأهل التعرّف عليها، وأنّ الذين حصلت بين أيديهم كانوا من طينة أخرى، كائنات استثنائيّة... وها هي الآن تعرض نفسها عليّ في الطبعة الأولى المبيعة بالاكتتاب والمطبوعة في ألف نسخة مرقّمة (٢٨٧ هو رقم تلك التي اكتشفتُها). كانت تعرض نفسها في أقلّ لحظات توقّعي لها وبثمن بخس، ستّين دولارًا. انتظرت زمنًا طويلاً، والآن وقد صارت متوفّرة، أستطيع لمسها، أتمنّع عنها، مرجئًا اقتناءها إلى وقت لاحق.

غير أنّي كنت أعود تقريبًا كلّ يوم لتصفّحها، تحت نظرة الكتبيّ الذي كان يتحرّك خفيةً مثل شبح. كان، بصدريّته، وقميصه ذي المربّعات، ومقدّمة خوذته الزّرقاء، يشبه موظّف التلغراف كما نراه في أفلام الويسترن. اقترب منّي مرّة وأعلن لي بهيئة جسورة إنّ زوجين قد باعاه فيما مضى البيرتون.

«كانا يرغبان في الانتقال من منزلهما ولم يريدا أن يُربكا نفسيهما بهذه المجلّدات. فكّرْ في كلّ الكتب التي نتخلّص منها بمناسبة تغيير المسكن! ماذا كانت ستصير مهنة بائع الكتب القديمة لولا أنّ الناس لا يبدّلون مسكنهم؟ ثلثا رصيدي مصدرهما أولئك الذين يرحلون، والباقي

من الذين ما إن يقرأون الكتاب حتى يتخلّصوا منه، أو من أولئك الذين شرعوا في أطروحة فلا يرغبون في أن تصرفهم كتبٌ غير تلك التي تهمّ اختصاصهم. قليل من الناس، في حاصل الأمر، يحبّون الاحتفاظ بالكتب».

لم أدرك جيّدًا مقصد كلامه. هل يُشْهِدُني على استخفاف الناس الذين لا احترام لديهم إطلاقًا للكتب، أم يحاول تثبيطي عن اقتناء البيرتون، الكتاب المُزعج؟

واصل: «ينبغي أن أقول إنّ المرأة إنْ كانت مرتاحة للتخلّص منه، فلم يبد على الرجل أنّه ينفصل عنه بطيبة خاطر. ورثه، على ما قال لي، عن جدّ بعيد لأمّه. عاد لزيارتي ذات يوم، وطوال حديثنا، كان يلقي بنظرات على كتابه، كأنّما يودّعه الوداع الأخير، خِلْتُ أنّني أرى دمعة في عينيه. بعض النساء قاسيات، يعدن ترتيب البيت بالتخلّص من كلّ ما هو من جهة الزوج، من مجموع ما أتى به من حياة سالفة».

لا بدّ أنّ للكتبيّ سببًا خاصًا ليخاطبني بهذا الخطاب، إنّه يعرف حكاية يتلهّف لحكيها عليّ، لكن في تلك اللحظة لم تكن لي رغبة في الإصغاء إليه. في دراستي عن النوم، أكّدت أنّ الحكايات يمكن أن تكون منبعًا للأخطار، سيّان للذي يحكيها أو الذي يسمع لها.

كانت محاضرتاي ستتناولان حبّ الاطّلاع المحظور في **ألف ليلة وليلة**. لم يكن الأمر يتعلّق في البدء إلّا بمحاضرة واحدة؛ أنا الذي اقترحت ثانية، معتبرًا من غير الجدير وغير المعقول أن أقطع الأطلسيّ من أجل عرض لمدّة ساعة فحسب، فضلاً عن أنّ عرضًا وحيدًا ما كان سيسمح لي بمعالجة عميقة لمثل هذا الموضوع الشاسع.

كان الجمهور يتألّف من زهاء عشرين من الطّلبة في

الأنثروبولوجيا، وامرأتين أو ثلاث لسن بصغيرات السنّ كنّ يستمعن لي منشغلات بالتريكو. يستعملن الصنانير بمهارة. كنت أستشعر منهنّ اهتمامًا خاصًّا تجاهي. إلاهات صارمات، ينسجن مصيري، وما كان لي من خيار آخر سوى الاستسلام لحكمهنّ.

لا بدّ أنّ اقتراحي أن أُحاضر مرّتين لم يرُق مضيفي. مشكلة القاعة، والتوقيت، وتفرّغ الطلبة. لمّا قدّمني إلى هؤلاء، شدّد بقلّة لباقة على «سخائي» والإفراط في التشكّرات. صار مشبوهًا. هيئة الطلبة لم تكن تكذّب هذا التخوّف: سيتحمّلونني طوال جلستين. لم يكونوا يحبّونني، هذا واضح.

بعد التقديم، شرع السيّد هاموست في تلخيص الحكاية الإطار في **الليالي**: تكلّم عن الملكة الخائنة، وعن قرار شهريار بأن يقتل في الصباح المرأة التي اتّخذها البارحة زوجة، وذكر شهرزاد التي شرعت، لإنقاذ حياتها، في رواية حكايات. وبالمناسبة، استطرد للعنوان: لماذا **ألف ليلة وليلة**؟ لم يغفل الكشف عن ختام الحكاية: الإبقاء على حياة الحاكية. وفي انطلاقته، ودون شكّ لجعل الطلبة على علم، استطرد إلى ذكر والت ديزني، علاء الدين والمصباح، علي بابا والأربعين لصًّا.

كنت أفترض **الليالي** معروفة ومحبوبة عند من سينصتون لي. لم يكن شيء من ذلك. وقد أربكني هذا بعض الشيء. أن يجهلوا الأدب العربيّ، هذا ما أنا مستعدٌّ لتقبّله. لم أكن أنتظر أن يعرفوا مثلاً المتنبّي، مع كونه أعظم شعراء العربيّة. لم أكن أنتظر أيضًا أن يكونوا عارفين بالنثر السردي في **مقامات** الحريري، التي لا تقدّم عنها الترجمة سوى حكايات مُفتقَرة. لكنّي كنت أبعد ما يكون عن الظنّ بأنّهم يجهلون تقريبًا كلّ شيء عن **الليالي**، الكتاب العربيّ الأكثر ترجمة وأحيانًا عدّة مرّات في اللغة نفسها.

لكن لماذا كنت خائب الظنّ؟ لماذا عليهم أن يعرفوا **الليالي**؟ ليسوا في الموقع المألوف عندي، موقف العربيّ الذي يحسّ نفسه مجبرًا على معرفة الأدب الغربيّ، لأنّ ذلك بالنّسبة له حتميّة مطلقة، مسألة حياة أو موت.

وضعي كان على شيء من النشاز: أمتلك معرفة عن الأدب العربيّ، وهذه المعرفة هي بالضبط ما يفصلني عن جمهور مستمعيّ. لتبليغها، ينبغي لي، على نحو ما، نسيانها. كنت أنوء تحت موروث لا ينفعني في شيء، ثروتي كانت عملة مزيَّفة، ومن ثم ما من تيّار تواصل مع المستمعين إليّ.

طريقة نطقي البشعة بالإنجليزيّة لا دخل لها في ذلك، فطريقة النطق لا أهمِّيّة لها عند الأميركيّين (أمّا عند العرب...). العرض الذي قدّمته حول «منع فتح باب»، كان من طبيعته مع ذلك أن يستثير نقاشًا. ظلّ الباب موصدًا... غير أنّ السيّد هاموست تناول الكلمة ليقول إنّ الموضوع الذي تصدّيت له وافر الغنى، نتبيّنه في أعمال عديدة من قصّة سفر التكوين حتى الرواية البوليسيّة. فضلاً عن أنّ البعض قد اعتبروا **أوديب الملك** لسوفكليس أوّل محكيّ بوليسي.

في اللحظة التي قمت فيها لأغادر، إحدى النسوة اللواتي كنّ ينسجن التريكو كسرت نذْرَ الصمت وقالت شيئًا لم أفهمه. لم أدر كيف أتصرّف. بقدر ما كنت قادرًا على التعبير عن كلّ شيء بالإنجليزيّة، وذلك ما كان يدهشني للغاية، بقدر ما كنت لا أدرك ما يُقال لي إلّا بشكل تقريبيّ. بدقّة أكبر، كان يوجد بالنسبة لي نوعان من المخاطَبين: أولئك الذين أفهم منهم وأولئك الذين لا أفهم منهم أدنى كلمة. لحسن الحظّ، كان السيّد هاموست من الصنف الأوّل.

لجأت إلى حيلة عتيقة، فتوجّهت إلى الحضور وطلبت منهم رأيهم

فيما قالته المرأة. تطوّع السيّد هاموست ليقول لي إنّه متأكّد أنّ طلّابه يحسّون الآن بالرّغبة في قراءة **الليالي**. كان في عينيه خُبث. هذا الثعلب الماكر قد كشف تحايلي وهبّ لنجدتي. كانت إلٰهة القدَر قد قالت: جعلتني أرغب في قراءة **ألف ليلة وليلة** (قالت The Arabians Nights). كان، وهو يفسّر قول المرأة، ينقذ الموقف، بإيجاد ما يشبه الحوار. عليّ أن أكتفي بهذا الصدى الوحيد. هذا يلائمني في الحقيقة، لأنّني لم أكن متأكّدًا من قدرتي على مواجهة أسئلة أخرى.

استثرتُ لدى ناسجة التريكو رغبة قراءة **الليالي**. أكان هذا هدف محاضراتي؟ كنت أنتظر بالأحرى ردّ فعل على خطابي، لكن في حاصل الأمر، لا سبب للتأسّف. بهذا الحكم، لم يكن حضوري في هذا المكان دون فائدة تمامًا. ربّما كانت ناسجة التريكو تعبّر عن الإحساس العامّ للحضور، إنّها الناطق بلسانه، وكلّفوها بأن تقول هذا الكلام اللطيف! فأنا ضيفهم، على كلّ حال، وهم ملتزمون تجاهي ببعض المراعاة. ومع ذلك، لا أستطيع استبعاد فكرة كونهم صادقين، وأنّهم يرغبون حقًّا في قراءة **الليالي**. يومًا ما، سيقرأونها، يومًا قريبًا أو بعيدًا، ربّما سيفعلون ذلك في هذا المساء بالذات قبل أن يناموا. سيفتحون الأوّل من السّبعة عشر مجلّدًا لرتشارد بيرتون، ويستغرقون فيه حتى الفجر. في حاصل الأمر، وعكس ما كنت أخشاه في البداية، فخطابي قد فاق أمَلي. كانوا، قاطعين كلّ أشغالهم، سيهرعون للحصول على **الليالي** في ترجمة بيرتون، سينقضّون على النسخة التي كانت تنتظرهم عند الكتبيّ العجوز.

اجتاحني على الفور خوفٌ خارج السيطرة. بفضلي، سيحقّقون صفقة جيّدة. كانوا دون شكّ يتردّدون على وكر الكتبيّ، وتبيّنوا سلفًا بيرتون، دون أن يدركوا قيمته، وأنا الذي ببلاهة كشفت لهم عنها حين

ذكرته بحماس. بعد بضع دقائق سيستلبون منّي النسخة التي صددتُ عنها بدون تبصّر. كلّ واحد منهم، أنا متيقّن من ذلك، في باله هذه الفكرة، وكلّ واحد يجتهد في عدم إظهار شيء منها. لا بدّ أنّ ناسجة التريكو نادمة لكشفها عن رغبتها في قراءة **الليالي**، ولا بدّ أنّها تقول لنفسها إنّ الصمت كان أفضل لها. قريبًا سيفترقون، كلّ واحد سيوهم رفاقه بأنّه عائد إلى البيت، وبعد أن يكون قد تخلّص منهم ببراعة، سيقصد حتمًا الكتبيّ. المسألة الآن هي من سيصل الأوّل؛ كان سباق هائل يتهيّأ...

لحظة كنت سأندفع بدوري، دخل معي الأستاذ هاموست في نقاش تبيّن أنّه سيكون طويلاً جدًّا. سألني، ملمّحًا بمكر إلى السؤال الذي لم أكن قد فهمته، إنْ كان بي شيء من الصمم. أنكرت على الفور، لكنّه لم يصدّقني وألحّ على ضرورة أن أعالج نفسي، إذ إنّ واقعة عدم فهمي لما قيل لي بالإنجليزيّة لا يعود، بحسبه، إلّا إلى نقص في السمع. كلّ هذا كان يُبطّئني. وفي اضطرابي، كنت أتّهمه بحبسي ليترك لطلبته متّسعًا للحصول على الكتاب. من واجبه التفكير في مصلحتهم، وبحبسي طوال هذا الوقت، يتلهّى بمشهد قلقي. لكن ربّما كان يسخر بالجميع، ويستمتع، ملتزمًا موقف الحياد، بالمسابقة التي ستجري. إلّا إذا كان هو أيضًا يحاول اقتناء النسخة الفريدة.

غير أنّي لن أسمح بهذا، لن يسلبوني ما أملك. انصرفت عن هاموست فجأة. بدا مصدومًا من موقفي، لكن كان عليّ الوصول عند الكتبيّ قبل الآخرين. نجحت في التقدّم عليهم، لقد بقوا ورائي. لم يطمئنّي ذلك: المكان مألوف لديهم، وسيسلكون دون شكّ طريقًا مختصرًا ويكونون أوّل من سيصل.

كان الليل، وبدأ رذاذ ثلج يسقط. كنت، وأنا أسير بخطوات واسعة، ألتفت لأتحرّى إن كان يتبعني أحد. انضاف عنصر جديد إلى

اضطرابي، عنصرٌ لم يكن قد خطر ببالي. ربّما كان المستمعون إليّ قد اشتروا البيرتون، عدّة أيّام من قبل، بمجرّد الإعلان عن موضوع محاضرتيّ. لماذا العجلة إذن؟ تمهّلت في سيري حتى أؤخّر قليلاً اللحظة التي سأعلم فيها بالنّبأ السيّئ. لمّا وصلتُ أخيرًا، كان الكتبيّ يوشك أن يغلق المحلّ. نظر إلى ساعته، ثم هدّدني في لطف بسبّابته، موحيًا بأنّه يمنحني امتيازًا بالتساهل معي بضع ثوانٍ بعد الوقت المقرّر للإغلاق. الكتاب المُشْتَهى إلى هذا الحدّ كان لا يزال دائمًا هناك.

توقّفت وأنا أغادر المحلّ لأستمتع بظفَري. قد فزت ومسبقًا أتلذّذ بمشهد أولئك الذين سيأتون حتمًا، والذين سيجدون ليس فقط المحلّ مقفلاً، بل سيرونني بكيسين كبيرين يتضمّن أحدهما عشرة مجلّدات، والآخر سبعة من نسخة السّير رتشارد بيرتون الثمينة.

الجوّ بارد، وضوء مصابيح الشارع يحجبه الثلج، والمارّة نادرون. انتظرت طويلاً. لا أحد جاء.

تراءى شبح امرأة من بعيد. إيدا! كانت تقترب بخطوات صغيرة... هي أيضًا آتية للبحث عن الكتاب، هي أيضًا، وقد علمت بالخبر، تجرّب حظّها... لكن فات الأوان. ولفكرة أنّها قد أتعبت نفسها في البرد عبثًا، شعرت آنذاك بقلبي ينقبض، لكن أيضًا بالخجل لأنّني استبَقْتُها. صارت الآن قريبة جدًّا، وبعد نظرة إلى الكيسين اللذين أحملهما، واجهتني وعيناها في عينيّ بهيئة عتاب.

ليست هي إيدا.

هي إيدا.

ما عدت أدري.

كان حملي ثقيلاً جدًّا. كنت دائمًا حمّالاً كئيبًا لا مجديًا، سندباد

الحمّال، لا تحت شمس بغداد المرهقة، بل وسط ثلج حَرَم جامعي أميركيّ.

بعد العودة إلى غرفتي، وضعت الكيسين في ركن ولم أعد أفكّر فيهما. ما عادت لي رغبة في قراءة رتشارد بيرتون ولا أن أشغل نفسي ب **الليالي**. شاهدت التلفزيون، وأنا آكل من علبة ضخمة من رقائق البطاطا.

كنت أبعد ما يكون عن الظنّ، وأنا أنطلق إلى الولايات المتّحدة، أنّني سأكتشف فيها مخطوطًا يتضمّن حكاية من **الليالي** لم يسبق نشرها. لا بدّ لي أن أوضّح أنّني لست من هواة النوادر أو الأشياء العتيقة، ولا تجذبني البحوث المتبحّرة. ورغم أنّني كرّست شطرًا من عمري لدراسة الأدب العربيّ القديم، فلست أذكر أنّني قلّبت مخطوطًا قديمًا واحدًا.

ذلك أنّني في يوم الغد من محاضرتي، وأنا أتصفّح مجلّدات بيرتون، وجدت في أحد أوائلها مخطوطًا عربيًّا قديمًا أنيق الخطّ، عنوانه الملتحم بالنصّ كان: «حكاية نور الدين والحصان». وفي الهامش، بالحبر الأحمر، ملحوظة وجيزة بالإنجليزيّة: «حكاية من **الليالي العربية** لم يسبق نشرها!...» (An Unpublished Tale of the Arabian Nights).

قبل التعليق على هذا الاكتشاف الاستثنائي (هكذا أراه)، سأنتسخ النصّ:

«بلغني أيّها الملك السعيد أنّ الأمير نور الدين خرج إلى الصيد فتبع غزالة وانفصل عن أصحابه فجرى وراءها ثم غاب عنه أثرها ولم يهتد من أين يرجع فسار يقوده حصانه وبعد ساعة اغتمضت عيناه وفي

لحظة أفاق لمّا كاد يسقط عن مطيّته تبدّلت عليه الأرض وأمامه أرض الظلمات المخوفة عند من سافر وجال والداخل إليها مفقود وقف الحصان وامتنع عن المسير نزل الأمير وقال لا بدّ هذا الحصان متعوب ولا يقدر أن يحملني ثم عزم أن يتابع طريقه ويقوده من عنانه فعاند الحصان وحَرَن فغضب الأمير غضبًا ما عليه من مزيد وأمسك بسوطه وصار يضربه فما قدر على تحريكه خطوة وآخر الأمر برك الحصان وما قدر أن يتقدّم فهل يا ترى كان يصدّ سيّده عن المخاطرة في هذه الأرض المجهولة ضجر الأمير وقال سأتركه وأمشي وحدي السوط في يده والغضب في عينيه فسارع من خُطاه غير أنّ الحصان قام فاعترض بينه وبين أرض الظلمات فتعارك الرجل مع الدابّة حتى في الأخير أعيت وسقطت وقد أشرفت على الموت من ضربات السوط فندم الرجل على عنفه واعتنق الحصان وأجهش بالبكاء ثم سار فما أسرع ما لفّته الظلمة وأبصر في هذه الأرض المجهولة بروقًا تومض من بعيد ومن لحظة لأخرى يسمع صهيل الحصان يدعوه إلى الرجوع وينبئه بخطر قريب ليأخذ طريق الإياب فما التفت وتابع طريقه».

هنا تنتهي الحكاية. لا حاجة لذكر حيرتي أمام هذا النصّ الذي ألقت به المصادفة بين يديّ. لم أتعرّف عليه في أيّ مكان، ولا في أيّ طبعة، وفي حدود علمي لم يشر إليه أيّ باحث. لا أعتقد أنّني ضحيّة مخادعة أو مزحة سخيفة، لأنّ الاكتشاف قد حصل في ظروف تستبعد كلّ تلاعب تدليسي أو مشبوه. لكن هل يتعلّق الأمر بحكاية من **ألف ليلة وليلة**؟ هل وقعتُ حقًّا على حكاية لم يسبق نشرها، أفلتت حتى الآن من يقظة المتخصّصين؟

تردّدي فيما يخصّ وضعيّة النصّ لا يمنعني مع ذلك من أن أطرح،

انطلاقًا من تحليله الداخلي، عددًا معيّنًا من الفرضيّات. ليس بحوزتي سوى كلام مدوّن الملحوظة الذي يؤكّد أصالته (ذلك هو التفسير الذي أعطيه لاستعماله في ملحوظته لعلامتي الختام، علامة التعجّب ونقط الوقوف الثلاث). لكن ربّما أراد القول إنّه يشبه حكايات **الليالي**، ونصادف فيه أسلوبها وهو بالتالي جدير بالوجود صحبتها. أنا عاجزٌ عن الحسم في هذا الاتّجاه أو ذاك، رغم أنّ أصدقائي يعتبرونني، وهم على خطأ، من العارفين بهذا العمل الأدبيّ.

الأصعب هو الكشف عن هويّة مدوّن الملحوظة. أميل إلى الاعتقاد أنّه ليس عربيًا ولا فرنسيًا، ليس فحسب لأنّ الملحوظة مدوّنة بالإنجليزيّة، لكن لأنّه يتحدّث عن Arabian Nights، وهي عبارة لا يستعملها إلّا الأنجلوسكسونيّون. ونتيجة لذلك يوجد مجال لافتراض أنّ الأمر يتعلّق بأميركيّ أو بريطانيّ.

لمن يتوجّه بالخطاب؟ لمن يُشير إلى الحكاية وكونها لم يسبق نشرها؟ لنفسه؟ لشخص يعرفه؟ لمخاطَب دون معالم محدّدة؟ في هذه الحال، العمليّة تشبه مخطوطًا مخبوءًا في قارورة استُودعت البحرَ.

ما يمكن التدليل عليه دون كبير تردّد، هو أنّه يعرف العربيّة، من واقع أنّه دوّن ملحوظة على نصّ مكتوب في تلك اللغة. وعلى أيّ حال، فقد قرأ السبعة عشر مجلّدًا من نسخة بيرتون، وقرأ كذلك الطبعات العربيّة في القاهرة وكلكتا، والترجمات العديدة وتحقّق من أنّها لا تورد هذا النصّ. ولا شكّ أنّه قرأ أيضًا ما كُتب عن أصل الكتاب وعن مختلف مخطوطاته المتوافرة، دراسات سلڤستر دي ساسي، وي. فون هامّر، ودنكن ب. مكدونالد، ونيكيتا إليسييف. لا شكّ أيضًا أنه قد اتّصل شخصيًا بالمتخصّصين في **الليالي** الذين أكّدوا له أنّهم لم يروا أبدًا الحكاية في أيّ مكان. وإلّا كيف كان بإمكانه الحديث عن حكاية لم

يسبق نشرها، إذا كانت توجد في هذا أو ذاك من المجاميع؟

للأسف، لا يوضّح كيف بلغه المخطوط. يظلّ متكتّمًا حول هذه النقطة ولا يورد أيّ مرجع أو مصدر. هل انتسخه من مخطوط آخر حيث كانت الحكاية موجودة إلى جانب الأخرى المعروفة تقليديًّا؟ لكن أين؟ قبل وبعد أيّ حكاية؟ في أيّ ليلة؟ من الغريب حقًّا أن ليس عليها رقم ليلة.

هل وجده عند شخص أهداه أو باعه إيّاه؟ أم دوّنه من إملاء حكواتيّ صادفه في مقهى بالقاهرة أو دمشق؟ لكن أيمكن حين نستمدّ حكاية من فم راوٍ أن نعتبرها تنتسب إلى **الليالي**، وإنْ جزم الراوي بذلك؟ من الواقع المعروف أنّ الرواة المشرقيّين، في القرن التاسع عشر، بعد أن عرفوا اهتمام الأوروبيّين بالمادّة، كانوا يزوّدونهم بشتّى ضروب الحكايات، زاعمين انتسابها إلى **الليالي**.

لكن لماذا دسّها في مجلّد من نسخة بيرتون؟ أللإشارة إلى أنّ هذا الأخير، الذي حاول الاستيعاب، قد أفلتت منه ولم يضمّها إلى ملحقه؟ تنبغي ملاحظة أنّ المخطوط موضوع بجوار حكاية القرندليّة الثلاثة وليس، كما يبدو من المنطقي، في أحد مجلّدات الملحق. مجرّد مصادفة؟

لكن لنفحص الحكاية نفسها. فقد تزوّدنا ببعض عناصر الإجابة. نتبيّن فيها ثيمات وموتيفات مألوفة لقرّاء **الليالي**. هكذا الأمر في التيه أثناء رحلة صيد، والتخبّط يفضي غالبًا إلى لقاء مع كائن خارق، جنّيّة، غول... والحال أنّ الأمير نور الدين يغادر عالمه المألوف ويدلف إلى عالم غريب، أرض الظلمات. لا أذكر أنّي صادفت هذه العبارة في موضع آخر، لكنّها بالتأكيد مصوغة على غرار بحر الظلمات، التي كانت تعني قديمًا المحيط الأطلسي. هذه الأرض حيث سيدلف الأمير تذكّر

في غموض بالمناظر الضّبابية والمقلقة في «حكاية مدينة النحاس». والمنع الضمني عن الدخول إليها ليس دون علاقة بالأبواب التي لا ينبغي فتحها، ثيمة حبّ الاطّلاع المحظور، التي نصادفها في عديد من حكايات **الليالي**.

ربّما كان هذا الجانب هو الملائم للبحث عن دلالة البروق التي تومض في البُعد. هل يتعلّق الأمر بكائنات عجائبيّة، عفاريت، شياطين؟ أهو إنذار، أم تحذير، أم دعوة، شهب اصطناعيّة للترحيب؟ نور الدين يعلم دون شكّ أنّ من يدخل أرض الظلمات لا يرجع منها. من المرجّح أنّه قد سمع بها ويعرف حكايات بشأنها. لكن أيّ حكايات؟

وبهذا الصدد، فاسمه، نور الدين، موجود في **الليالي**، لكنّه يشير إلى شخصيّة لا تشترك معه في شيء. إنّه اسم ذو دلالة في حكاية تنتهي بدخول البطل أرضًا حالكة، أشبه بليل الجاهليّة.

غير أنّ سلوك الحصان هو الأعجب. هذا الحيوان حاضر في حكايات أخرى: حصان الآبنوس، حصان النحاس، الحصان المجنّح... أمّا حصانٌ يتصرّف مثل حصان نور الدين، بطريقة تكاد تكون بشريّة، فيخلو منه الكتاب. إنّه، بكلّ تصرّفه، يجهد لمنع سيّده من الدخول إلى أرض الظلمات. أهي غريزته التي جعلته يتوقّف عند عتبة البلاد المظلمة؟ أكان فيما سلف قد اجتاز هذه العتبة وعاش فظاعاتها التي يريد أن يُنقذ نفسه منها وينقذ سيّده؟ يا أسفًا! لا يقدر على الكلام، يفهم كلّ شيء لكن لا يمكنه التعبير إلّا بالصهيل وإيماءات الامتناع.

من يدري؟ ربّما كان شخصيّة ممسوخة، وهي ثيمة كثيرة الورود أيضًا في **الليالي**: لنتذكّر الأختين الممسوختين كلبتين، لنتذكّر خصوصًا القلندري الثاني الممسوخ قردًا، القرد الخطّاط الشهير، الذي لمّا عجز عن الكلام، عبّر عن نفسه بالكتابة... لكن لا شيء في النصّ يسمح

بالاعتقاد أنّ الحصان كان رجلاً ممسوخًا لكونه قد دخل، في زمن بعيد أو قريب، أرضَ الظلمات! وهذا العقاب هو دون شكّ ما يريد تخليص سيّده منه. إذا كانت للحكاية تتمّة، فلا يمكن استبعاد هذا الاحتمال.

ماذا نقول الآن عن عراك الرجل والدابّة والهزيمة المرّة للطرفين؟ يذكّرني هذا في غموض بشيء ما، ينبغي أن يذكّرني هذا... ماذا بالضّبط؟ ولماذا يبكي الأمير؟ أندمًا لتعذيبه الحصان أو حسرةً على فراقه؟ لكن من يتخلّى عن الآخر؟ من الأشدّ ذَنْبًا؟ من المؤكّد أنّ الصهيل اليائس من الحصان ودموع نور الدين تبذر في الحكاية نبرة مُشْجية.

لكنّ عنصرًا آخر أكثرُ إثارة للحيرة: نوم الأمير. وإذا لم يكن الكلّ سوى حلم؟ الحكاية، في حاصل الأمر، تبدو لي بنيتها بنيةَ حلم، بل رؤيا كابوسيّة. تلك المعركة الليليّة مع الحصان، تلك الأرض غير المحدّدة والمجهولة؛ وعلى الخصوص هذا الإصرار على التقدّم إلى الأمام، هذه الرغبة المبهِظة في مواجهة الخطر عن معرفة، والإحساس بخطر مداهم، كلّ هذا متّصل بالتوتّر والمعاناة الخاصّين بالحلم فيما هو يتحوّل إلى كابوس. الكابوس والحصان. Nightmare، فَرَسُ الليل...

على مستوى آخر، تلزم ملاحظة أنّ الحكاية في غاية التكثيف والتلخيص. لا لأنّه لا توجد حكايات قصيرة في **الليالي**، بل لأنّ هذه الحكاية، بإيجازها المحيِّر، لا تُشبع نهم القارئ. ليس فيها تلك الأشكال من الإطناب، والتكرار المميّزة لـ **الليالي**، تلك العبارات من نمط: «في يوم من الأيّام...»، «في سالف الزمان...» والأخطر أنّها بالعربيّة الفصحى، وهذا ما يستثير مشكلة. فأقدم مخطوطات **الليالي** مكتوبة بلهجة مخدومة شيئًا ما تُسمّى العربيّة الوسطى. ولا شكّ أنّ حكايتنا قد روجعت، وأُعيدت كتابتها، وإذا كان الأمر كذلك، فانطلاقًا

من أيّ أصل ومن أنجز ذلك؟

فضلاً عن أنّها إذا كانت مفتتحة بالعبارة التقليدية، «بلغني أيّها الملك السعيد»، فهي ليست مختتمة بالعبارة التي تميّز عادة ختام الحكايات، على الأقلّ عدد كبير منها. كان ينبغي أن تنتهي بـ «هذه، أيّها الملك السعيد، حكاية نور الدين والحصان العجيبة. . .» هل استسلم النسّاخ للتعب، أو رأى في ذلك لغوًا، وأنّ الحكاية ستكون أشدّ تأثيرًا بدون تلك العبارة؟ وبعبارة أخرى، هل «صحّح» النصّ؟

في العادة، تبدأ الحكاية بتعيين البلد حيث وُلد البطل. لا شيء من ذلك هنا. لا شيء أيضًا عن نسبه، وأبويه، وتكوينه، وميوله، فيما خلا الصيد. وفي العمق، فالنصّ، ما عدا اسم البطل والعبارة الافتتاحيّة، لا يتضمّن شيئًا يُحيل على العالم العربيّ، وعلى الشرق. يمكن للحكاية أن تجري في أيّ مكان، في أيّ بلد.

كلّ هذا لا يشهد لصالح صحّة نسبة النصّ. محاكاة رعناء، انتحال سخيف؟ المُدلِّس (إنْ كان كذلك، لكن هل هو مدوِّن الملحوظة؟) قد ارتكب خطأ فظًّا لمّا لم يأخذ بالاعتبار العادات الأسلوبيّة الأوّليّة التي تجعلنا نتعرّف فورًا على حكاية من **الليالي**.

أو ربّما كان بالغ المهارة؟ هل أظهر التراخي كي يطرح لغزًا على القارئ؟ **هذه ليست حكاية من الليالي**. . . إنّ المدلِّس كثيرًا ما يترك أثرًا عن فعلته، إذ في جانب منه توجد رغبة أن يتعرّف عليه الناس ويعترفوا به.

(لماذا أصررت على الحديث عن مدوّن الملحوظة كأنّما كان بالضرورة رجلاً؟ وإذا كان امرأة؟).

يشتدّ الشكّ حين اعتبار الخاتمة. أهي خاتمة حقًّا؟ هل النصّ

مبتور؟ أتوجد تتمّة لم يُحتفظ بها؟ أكان المقلِّد عاجزًا عن إيجاد واحدة، بسبب انحباس في الخيال؟ أو على العكس، هي خاتمة محتومة، مقصودة، تُعتبر ناجحة جماليًّا، بالقدر الذي يكون فيه ثراؤها باحتمالات لا تُحصى، يُتيح كلّ الاستيهامات؟ الحكاية، كما تعرض نفسها، تبدو كاملة. إعطاؤها تتمّة، يعني إفسادها. ذلك ما يكون قد اعتقده المؤلِّف. فُجَائيّة الخاتمة ليست بالضرورة عيبًا؛ لنتذكّر أفلام هيتشكوك، لنتذكّر على الخصوص النهاية المُلغّزة في **مغامرات آرثر كوردن بيم** لإدگار آلن پو!

ها أنا ذا في مواجهة مسألة ثقافة المؤلِّف (مدوِّن الملحوظة؟) والإغراء الباطل بالإجابة عنها انطلاقًا من صفحة مخطوطة. ألا تكون أرض الظلمات هذه استذكارًا مبهمًا لرواية جوزيف كونراد، **قلب الظلمات**، التي تجري قصّتها في عمق إفريقيا، في مناطق مغمورة حيث البطل، كورتز، لن يعود منها؟ لكن كيف لا نفكّر، بخصوص دموع نور الدين، في دموع نيتشه، وقد أبصر، في مدينة طورينو، صاحب عربة ينهال بالسوط على حصان، فيعانق الدابّة مجهشًا بالبكاء ويغرق على الفور في الجنون؟ التماثل مُحيِّر. فتكون إذن أرض الظلمات استعارة عن الجنون. ويكون المؤلّف قارئًا لنيتشه أراد أن يقوم بخدعة بتحويله لقصّة الفيلسوف. وهكذا لن تكون هذه الحكاية سوى سرد مقنَّع لفصل دراميّ من حياة نيتشه. نيتشه كشخصيّة من شخصيّات **ألف ليلة وليلة**...

كانت محاضرتي الثانية تتناول، من جهة، محظور السؤال، ومن جهة ثانية، محظور ذكر اسم الله أثناء بعض الأسفار الخارقة. وطبعًا، شخصيّات **الليالي** تنتهك هذا وذاك فتُعاقَب بصرامة. كلّف حبّ الاطّلاع عينًا واحدة لكلّ من القلندريّة الثلاثة والاثنين لأوديب...

جمهور المستمعين لي، عند نهاية مقالي، التزموا بصرامة محظور السؤال. ارتبت في أنّهم مستاؤون منّي لأنّني اقتنيت البيرتون الذين طالما رغبوا فيه.

وأنا أغادر القاعة، أبصرت في الممرّ السيّدة هامْوِسْت تنتظر زوجها. كانت تصحبها إيدا، إيدا التي ما إن رأتني حتى أسرعت بالذهاب. صار هذا عندها عادة... نظرت إليها تبتعد بخطى سريعة. الگراديڤا... السيّدة هاموِست، الشاهدة على قلقي، همست:

«أرى أنّك مضطرب. أنت تحبّ إيدا، أليس كذلك؟ هذا ظاهر، هذا كان ظاهرًا منذ اليوم الأوّل حيث لقيتها».

كنت سأحتجّ، فقاطعتني:

«لا تنكر، رأيت أثناء العشاء طريقتك في النظر إليها، كلّك إعجاب أمامها، لا تحوّل عينيك عن وجهها، لم تعد تأبه لشيء، ما موجود إلّا هي. ولمّا أغفيتَ، نطقت باسمها عدّة مرّات وبصيغ شتّى، إيدا، أدا، عايدة، إيدّا. لكن اعلم أنّ اسمها هو إيدا، ومن الأفضل أن أقول لك هذا الآن، لا حظّ لك معها، إنّها لا ترغب في الارتباط بأيّ رجل. بالنسبة لها، الرجال جميعهم أشرار ولا ينبغي للمرأة بتاتًا أن تثق بهم».

لماذا هذا الموقف المتطرّف من إيدا؟ ما الذي في حياتها، في ماضيها، كان السبب في مثل هذا القرار؟ لا شكّ أنّها كانت قد عانت من خيبة كبيرة، ومنذئذ، لم تعد ترغب في سماع حديث عن علاقة حبّ.

واصلت السيّدة هاموست:

«لا يذهب بك الظنّ أنّها عانت من خيبات عاطفيّة، أو أنّ لها ميلاً إلى النّساء. حكايتها سهلة ومعقّدة في الآن ذاته. كيف أقول لك؟ مَقْتُ أيّ علاقة أصابها من قراءاتها. في المراهقة، قرأت مدام بوڤاري

وصدمها في الأعماق أن لا أحد هبّ لإغاثة إيمّا في معاناتها، لا رجل. لا ليون، ولا رودولف دعماها في محنتها. الحاصل، كان الرجال سبب انهيارها وانتحارها. هذه الرواية كان أثرها عميقًا في إيدا، مرضت من ذلك وبكت كثيرًا. ومنذ ذاك، ترتاب بالرجال، مقتنعةً أنّ امرأة لن تجني من معاشرتهم إلّا الخيبة والمرارة. فضلاً عن أنّها تؤكّد أنّ كلّ الروايات التي قرأتها تصف الشيء نفسه».

أدركت آنذاك لماذا تنفر منّي إيدا، لكنّي كنت أرغب في الاحتجاج، في تصحيح هذه النظرة. لم تترك لي السيّدة هاموست وقتًا لذلك.

«أنت تضايق إيدا، تريد منك أن تتركها في حالها، وتكفّ عن النظر إليها، ومطاردتها برغبتك. أتعدني بهذا»؟

وعدتها.

لكن لماذا لا تقول لي إيدا ذلك بنفسها؟ أحقًّا كلّفَت السيّدة هاموست بإبلاغي هذه الرسالة؟ أيلزمني أن أصدّق كلّ ما تحكيه لي هذه الأخيرة؟ إلى أيّ حدّ هي متورّطة في هذه الحكاية؟ أتشارك إيدا في وجهة نظرها؟ وكيف تدبّر هي من جهتها علاقتها بزوجها؟ لم أجرؤ على سؤالها عن هذه النقطة الأخيرة، فذكرت، ليس دون مكر، شارل بوڤاري، «شاربوڤاري» المسكين الذي كان يحبّ إيمّا كثيرًا وبلغ من تأثّره بموتها أنْ لم يعش بعدها. استاءت:

«لكنّه شخصيّة تافهة تفاهة مقنطة. الفتاة تحتاج إلى رجل يثيرها، يقلب خيالها ويجعلها تحلم».

كلّ هذا القدر من سوء النيّة، واللاّمنطق...

لحق بنا السيّد هاموست في هذه اللحظة، بعد أن ودّع طلبته.

قال: «لنذهب نأخذ لنا كأسًا».

في المقهى حيث جلسنا، كنت لا أزال مشغول البال بما علمته عن إيدا.

أخرج السيّد هاموست من جيب سترته الداخلي مفكّرة، تصفّحها، ثم شرع يقرأ لاميّة العرب، أقدم قصيدة عربيّة، كما وضّح، حيث الشاعر الصعلوك الشنفرى يعلن لقومه أنّه سيميل عنهم ليعيش في الصحراء مع بني آوى والضباع، أهله الجدد.

ردّد هاموست هازًّا رأسه: «أهله الجدد».

كان يقرأ بغبطة واضحة. لم تكن له بتاتًا فرصٌ لإنشاد الشعر العربيّ أمام جمهور، وأقلّ من ذلك في لغته الأصليّة. لقد شكّل مختاراته بنفسه، مدوّنةً في مفكّرة موضوعة باستمرار قريبًا من قلبه. كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها، في سياق غير أكاديميّ، شخصًا غير عربيّ ينشد أبياتًا عربيّة.

«اسمع الآن ما كتبه شاعر قديم آخر:

إنْ يومًا أحببتَ امرأةً لا تسْعَ إليها مُنتابا
أُمكث في بيتك لا تبرحْ هي يومًا تطرق البابا

«كَثُر الكلام عن هذين البيتين. بعضهم رأى فيه تأمّلاً كئيبًا في بطلان رغبات الصّبا بل والرّغبة ذاتها.

«آخرون أخذوا على الشاعر كونه لا يخاطب إلّا الرجال. ماذا كان سينصح امرأة عاشقة؟ السلوك نفسه؟ لكن، كما قيل، قدَر المرأة، كان على أيّ حال، أن تظلّ حبيسة عتمة الانتظار.

«آخرون أيضًا يقرأون النصّ قراءة خاطئة. بدل «لا تسع إليها

منتابا»، يقرأون: «لا تسع لامتلاكها». من الواضح أنّ هؤلاء قد أوقعتهم في الخطأ الترجمة الفرنسيّة لرولان بيدار. والأدهى في هذه الترجمة أنّنا نقرأ فيها: «هي يومًا ستدقّ جرس الباب»، وهذه مفارقة تاريخيّة ظاهرة.

«آخرون في النهاية يفترضون أنّ البيتين قد نُظما والمؤلّف في مرحلة الأفول، يتوق إلى الراحة الأبديّة. ويضيفون أنْ لا امرأة أبدًا أتت تطرق بابه، وإذْ ذبلت زهرة رغبته، فهو لا ينتظر شيئًا، إنْ لم يكن الموت، والموت لا يريده. لكن ذات مساء، حصلت رؤيا، رؤيا قصيدته بالضبط! كلمة جميلة أتت تطرق بابه. ذلك ما كان يبحث عنه مدى حياته كلّها، دون أن يدري».

صمت هاموست لحظة، بادي التأثّر.

تابع: «ماذا أراد بقوله «امكث في بيتك»؟ لا أعتقد أنّه يقصد ذلك حرفيًّا، وإنّما بمعنى «لا تتخلّ عن ذاتك».

«الأصعب على الإيضاح هو النبرة الساخرة للشاعر الذي تُنسب إليه الرباعيّة التالية:

عليك بيتك فالزم مأواكا وأنت لست تفعل ذا ولا ذاكا

ستخرج حتمًا من مثواكا فتزورك وأنت لستَ هناكا

«بلغ من نجاح هذه الرباعيّة أنْ أخذها الموسيقيّون. وتكاثرت المحاكيات لها. وأهمّها تبدو التالية:

إذا الهوى إلى امرأة دعاكا اقصد الدنيا واهجر مثواكا

ولمّا تؤوب حتمًا إلى مأواكا في البيت تلقاها قَبْلاً هناكا»

كان هاموست يترجم أوّلاً بأوّل لزوجته التي كانت تحدّق فيه، مُستثارة ومأخوذة.

بعد محاضرتيّ، كان لي كلّ الوقت للاهتمام بحكاية نور الدين والحصان. فقد جالت ببالي فكرة أن أنشرها مرفقة بدراسة، حيث أسرد ظروف اكتشافها. وفي الهوامش، كنت أنوي الإشارة إلى تماثلات، عديدة جدًّا، مع حكايات معروفة في **الليالي**. وسيشكّل المجموع مقالة من حوالى العشرين صفحة، سيستأنف عنوانها كلمات مدوّن الملحوظة، لكن بصيغة الاستفهام: «حكاية من **الليالي** لم يسبق نشرها؟» وبتأكيدي على تردّدي، سأخفّف من مسؤوليّتي، لكنّني سأوجّه حتمًا القارئ نحو الارتياب، وأخون على نحو ما مقصد مدوّن الملحوظة الذي لم يكن يرتاب في صحّة النصّ.

لكن أين أنشر المقالة؟ فكّرت أوّلاً في مجلّة «Studia Arabica» حيث كان قد صدر بحثي عن النوم. لا شكّ أنّه كان من مصلحتي استشارة الأستاذ ك.، فهو الذي، على كلّ حال، قد دفعني إلى طريق النشر. لكنّي كنت أعرف أنّه مريض، يعاني من انهيار عصبيّ خطير منذ أن شرع في إعادة خلق الخاتمة «الحقيقيّة» لـ **اللّيالي**. لم يكن يكلّم أحدًا ولا يردّ على المراسلات. كان، مثل نور الدين، قد وطئ أرضًا مجهولة، مظلمة: ما وراء **الليالي**، ما لا ترويه **الليالي**. لا حصان، للأسف، حاول صدّه...

أعوزتني تزكيته لي. فالأرجح أنّ لجنة تحرير **دراسات عربيّة** ستردّ على عملي بعدم القبول. سينعتونني بالمنتحل، ويفضحون زعم المخطوط المعثور عليه، وهي حيلة عتيقة مبتذلة في الأدب السّرديّ. مخطوط مدسوس في كتاب! ولم ليس في صندوق مغبرّ مركون في تسقيفة؟ ويضيفون أنّي لو كنت شئت صنع محاكاة جادّة، فما كان عليّ إلّا التصريح بذلك علنًا، وسيحكمون عليّ بحسب قيمة نصّي. طبعًا لو كنت قد عثرت بعد جهد على المخطوط في المكتبة الوطنيّة بباريس أو

في جامعة ليدن، لكان الاستقبال مختلفًا.

فكّرت بعد ذلك في مجلّة أدبيّة. لكن من ذا الذي يرغب في نشر نصّ مع مجموعة مدهشة من الهوامش والشروح العالِمة؟ وإذا تصادف قبوله، فسيكون ذلك باعتباره تخييلاً. وبالتالي ستُسلب منه قيمته، فالنصّ ليست له القيمة نفسها تبعًا لاعتباره صحيحًا أو منحولاً.

لـمّا كنت في حاجة لرأي شخص مسؤول، قصدت السيّد هاموست. وبعد أن تأمّل المخطوط طويلاً، قال لي:

«إجمالاً، أنت تريد أن تصنع ثانية ما صنعه إدگار پو في «تكوين قصيدة» حيث يروي كيف نظم قصيدة **الغراب**. طموحك هو أن تكتب «تكوين حكاية». غير أنّك أنت لا تدّعي أبوّة النصّ الذي تحلّله... أوافقك بالطبع على فكرة نشره. إنّه حكاية قبل كلّ شيء طريفة، مثيرة للاهتمام على أيّ حال. كلّ من اطّلع عليها يريد شرحها، وكشف لبّها. أمّا معرفة إن كانت حكاية من **الليالي**... الواقع، ما هي حكاية من **الليالي**؟ ما خصائصها، وميزاتها؟ ربّما هي حكاية تُذكّر بحكايات أخرى من **الليالي**. من زاوية النظر هذه، فهي فعلاً واحدة منها...».

بواسطة انتقال زوجين، بلغني مخطوط، موروث عن جدّ بعيد. وإذا كان هذا الأخير هو مدوّن الملحوظة! بل يمكن الظنّ أنّه كان أحد الألف من المكتتبين لطبعة بيرتون، وأنّه، من هذا الواقع، كان قارئًا متحفّزًا للغاية. هذا الجدّ بدأ يستثير اهتمامي، بالطريقة نفسها لاهتمامي بحفيده الأخرق الذي تخلّص من الكتاب دون أن يتبيّن ما يتضمّنه.

فضلاً عن أنّه كان لي بعض التردّد في الاحتفاظ بالمخطوط. لم

أكن مالكه بالمعنى الدقيق، وللأمانة كان عليّ إرجاعه إلى مالكه الشّرعي. يلزمني، على أيّ حال، الكلام معه بشأنه وأخذ رأيه حول مشروع النشر. كنت أستشعر أنّ مفتاح اللغز عنده، جزئيًا على الأقلّ.

عندئذ لجأت إلى الكتبيّ، الذي اندهش بما أعلنته له، فرماني بنظرة مرتابة، إمّا يظنّني اختلقت قصّة، أو يلوم نفسه على كونه لم ينجز الاكتشاف بنفسه. اطمأنّ لمّا كشفت له عن نيّتي إرجاع المخطوط.

قال: «لا تهتمّ، زبائني يعودون دائمًا، عاجلاً أو آجلاً. سأجعلك تلتقي جون ﭘيري (هذا هو اسمه). لكنّي أحذّرك، سيتلف الوثيقة، لأنّه منذ لقائه بجُوهَنّا، زوجته، يثابر على تصفية كلّ ما كان صادرًا عن ماضيه. لا بدّ من الظنّ أنّ هذا اللقاء كان بالنسبة إليه رؤيا. ما عاشه في الماضي يبدو له غير لائق، مُهينًا. قطع إذن الصلة بأصدقائه، وجدّد لباسه، وبدّل مسكنه، وابتاع أثاثًا جديدًا. تخلّص من كتبه، ومزّق دفاتره المدرسيّة والرسائل التي كان لا يزال يحتفظ بها حتى ذلك الحين. لم يشفق على نفسه، فأحرق صوره، صور المراحل المختلفة من حياته، منذ أن كان رضيعًا. أخشى كثيرًا أنّ المخطوط الذي تحدّثني عنه سيلقى المصير نفسه».

هذه الرواية من قصّة السيّد جون ﭘيري كانت تختلف شيئًا ما عن تلك التي كان الكتبيّ قد أوحى بها من قبل. زوجة الفتى ليست هي التي دفعته إلى أن يمحو صفحة الماضي.

«لكن مع ذلك هو لم يقرّر هجران كلّ شيء إلّا من أجلها، لأنّه قد التقى بها».

حقًّا الروايتان لم تكونا متباعدتين إلى هذا الحدّ وتتطابقان من حيث النتيجة.

في عمق ذاتي، لم أكن أرغب بتاتًا، بعد أن سمعت ما سمعت، في لقاء شخص لا يحبّ نفسه، وينفر من المرايا ويثابر على أن يمحو منهجيًّا كلّ أثر من حياته السالفة. ألم يكن قد تصرّف مثل ذلك العالم، الذي، عشيّة ولادة ابنه، رمى بكتبه إلى البحر؟ غير أنّي تركت للكتبيّ رقم هاتفي راجيًا إيّاه أن يبلغه إلى السيّد جون پيري. بعد بضعة أيّام، كالَمَنِي هذا الأخير واتّفقنا على اللّقاء في مقهى ستاربكس.

كنت أتساءل كيف سأتعرّف عليه، لكن لا بدّ أنّ الكتبيّ قد وصفني له بما يكفي من الدقّة، إذ هو الذي قصدني. نظّارات مثقّف مستديرة، شارب صغير، ربطة عنق، لكنّ ما لفت نظري كان حركة عصبيّة متكرّرة، تغضّنًا يفعله بزاوية الفم، تعبيرًا عن تقزّز، مرارة، نبذًا للعالم.

أظهرت له المخطوط وكشفت له عن محتواه.

قال: «لم أتعلّم الأبجديّة العربيّة، لكنّي أعرف خطّ الملحوظة، هو فعلاً لأحد أسلافي الذي كان يعرف العربيّة. لا حاجة للقول إنّك ستحتفظ بالمخطوط، فلا مطالبة لي به».

أخبرته أنّني لن أغفل في دراستي عن إيراد أنّه قد أذن لي بنشر النصّ والتعبير له عن تشكّراتي. بدا عليه التفكير، ثم لاحظ:

«تنقص امرأة، تبدو لي الحكاية مبتورة. لا حكاية في **الليالي** معفاة من قصّة حبّ، على الأقلّ تلك التي قرأتها. لكن أيّ نمط من المرأة يمكن أن نصادف في أرض الظّلمات»؟

لم أكن قد فكّرت في هذا الجانب من المسألة. امرأة... كان الحزن في صوته يماثل ذاك الذي استشعره العالِم بعد أن غرّق كتبه (مات فورًا بعد ذلك).

أيّام بعد هذا، دعاني جون پيري للعشاء في بيته. زوجته، قصيرة وممتلئة، عينان زرقاوان، شعر أشقر باهت، تعطي باستمرار الانطباع بأنّها على وشك البكاء، وكأنّها في حاجة إلى من يطمئنها. لذا كان يمسك من حين لآخر بيدها، كأنّه يساعدها على مدافعة المحتوم، ولُجَج القلق الصاخبة. كان العشاء كئيبًا، مع لحظات طويلة من الصمت.

صور للوحات كانت تزيّن الجدران، لكن ما لفت انتباهي هو صورة قديمة وراء زجاج، مصفرّة قليلاً بفعل الزمن، تمثّل رجلين في منظر طبيعيّ إفريقيّ، يعتمران بالطبع الخوذة الكولنياليّة والبندقيّة مرتكزة على الأرض. أحدهما مائل إلى الهُزال، يحمل المونوكل، والآخر ذو لحية تفترق فرقتين؛ لا نرى سوى جانب وجهه الأيمن وهو ذو هيئة مقلقة شيئًا ما بسبب البريق الحادّ لحدقته. في الخلفيّة، طفل أسود يضحك بكلّ نواجذه. لاحظ جون پيري اهتمامي بالصورة.

«صاحب اللحية ليس سوى القبطان رتشارد بيرتون، «رجل شيطان»، كما كانوا يسمّونه. أمّا الآخر فهو جدّي. من أصل اسكتلندي، سافر كثيرًا وتعلّم العربيّة في مصر. التقى فيها بيرتون وكلاهما تنكّر بغاية الحجّ إلى مكّة، لكن في الطريق أجبرت إصابةٌ في القدم جدّي على التخلّي عن مشروعه. بعد مدّة، ذهبا كلاهما إلى مملكة أبومي الإفريقيّة، حيث الأضحيات البشريّة كانت لا تزال جارية. كان لهذه الممارسة تأثير عظيم جدًّا على جدّي، فخصّها بصفحات عديدة من يوميّاته. وهكذا نعلم أنّه في كلّ مرّة أراد الملك كَلي ـ كَلي أن يخبر أباه المتوفّى بأمرٍ من الأمور، يستدعي بأسير، ويعلّمه بعناية الرسالةَ التي سيبلّغها إلى العالم الآخر، ثم يضرب عنقه».

كان لا جدوى من سؤال جون پيري عن المصير الذي خصّ به تلك اليوميّات، لا شكّ قد ألقاها إلى النار في مساء شتائيّ. لكنّه احتفظ

بالصورة، مبقيًا بذلك على صلة، مهما كانت ضئيلة، مع حياته السالفة. ضجر من تمزيق كلّ شيء، فأبقى على صورة. كان أوان تدميرها قد فات. عبثًا نمحو الآثار، يبقى بعضها وأشباح الماضي تلحق بنا في لحظة من اللحظات. لا بدّ أنّه حدس فكرتي إذْ قال مشيرًا إلى الصورة:

«يمكنك أن تأخذها، إذا شئتَ».

كان يهدينيها، كما كان قد أهداني المخطوط. هل فسّر الانتباه الذي كنت أحدّق به فيها كرغبة في الاستحواذ عليها؟ كنت ضحيّة ضيق متزايد. إذا شئتَ! هل يدعوني إلى ضمّ الصورة، بمثابةِ وثيقةٍ، إلى دراستي؟ أم يخجل من الاحتفاظ بها ويفوّض إليّ مهمّة إخفائها؟ هذا الافتراض الأخير لا يروقني بتاتًا. لماذا، بدل أن يتحمّل مسؤوليّاته، يكلّفني أنا بتدبير حُطام ماضيه؟

مقامي في الولايات المتّحدة كان يقارب النهاية. يومين قبل عودتي إلى الوطن، دعاني الزوجان هاموست إلى المطعم. طوال العشاء، كنت أنتظر أن تلحق بنا إيدا. كلّما انفتح الباب، أنتفض، بأمل أن أراها تظهر. مضيفاي، وقد خمّنا مجرى أفكاري، كانا يتبادلان النظرات. كان السيّد هاموست متضايقًا قليلاً، لكنّ زوجته تبدو مغتبطة بخيبتي. كلاهما يعرفان أشياء عن إيدا (وربّما عنّي أنا أيضًا) لن أعرفها أبدًا. لن يتحدّثا عنها، وأنا من جهتي لا أجرؤ على سؤالهما.

لحظة الوداع، قال لي السيّد هاموست إنّ طلبته سيحتفظون عنّي بذكرى طيّبة، وأهدتني السيّدة هاموست خمار رقبة بلون أحمر بنفسجيّ.

بعد العودة إلى النادي، قرّرت أن لا أنام وأن أنتظر إيدا. وعدني

بذلك الشاعر العربيّ القديم، ستلحق بي. ما عليّ إلّا أن أظلّ يقظان، فرصة جديدة ممنوحة لي لا ينبغي إضاعتها بالإغفاء.

صمدت الليل كلّه، وفي الصباح، قرّرت ألّا أخرج، ولو للأكل. سأمسك عن الطعام، سأقاوم الجوع والنوم وسأنتصر في هذا الاختبار الثاني. يوم كاملٌ يُتاح لي، يوم من الأمل، وأيضًا ليلة.

سرعان ما أعددت حقيبتي. الغرفة، الفارغة فجأة، تتّخذ مظهرًا يكاد يكون عدائيًّا.

لمّا حلّ الليل، كنت لا أزال أنتظر، واثقًا بقول الشاعر. ما كان ليحبس إيدا ويخونني. يا للأسف! استسلمت للنوم، نوم عميق ثقيل، حتى الصباح، حتى وصول السائق الذي سيذهب بي إلى المطار.

في الاستقبال، الحارسة الليليّة أخبرتني أنّ امرأة شابّة كانت قد جاءت لتراني.

«صعدتْ وطرقت بابك، لكن لمّا لم تفتح، ظنّنت أنّك قد خرجتَ. نزلت بعد ذلك وانتظرتك طويلاً».

كان ما يشبه اللّوم في نبرة الحارسة.

السائق، الذي كان السّائق نفسه، بدا عليه أنّه مسرور برؤيتي. هذه المرّة لم يخطئ الطريق وساق مباشرة نحو المطار.

الجنون الثاني لشهريار

منذ زمن ليس بالطويل، شرع أحد طلبتي، إسماعيل كَمْلُو، في دراسة عن **ألف ليلة وليلة**. وبرأي الذين تفحّصوها، فهي لا تخلو من أصالة، لكنّهم يأخذون عليه أنّه يشوّش، بدون تبصّر، الأسلوب المعتاد للبحث الجامعي.

كان إسماعيل كملو طالبًا لامعًا، انفعاليًّا ورهيبًا، من أولئك الذين، لاعتبارهم أنفسهم متفوّقين على الأساتذة، يروق لهم ضبطهم في حال الخطأ. ويلزمني الاعتراف أنّه قد خلق لي المتاعب طوال أوّل سنة كان فيها من طلبتي، إذْ يتصرّف معي كأنّما كان هو الأستاذ. دام هذا حتى اليوم الذي عثرت فيه على نقطة ضعفه: كان في حاجة إلى الاعتراف به. اعترفت آنذاك بقيمته أمام زملائه (الذين لم يكونوا يتورّعون عن التهكّم من اسمه ذي المعاني المتعدّدة، سواء في العربيّة أو الفرنسيّة أو الإنجليزيّة)، نوّهت به وتوصّلت بهذه الطريقة إلى إبطال مفعوله.

لم يعد يتدخّل بصخب أثناء الدروس، لكنّه يأتي عقبها مباشرة يطلعني على قراءاته الشخصيّة. كان يقرأ بغزارة، مع إيثار لمؤلّفات

نادرة، أو هامشيّة، أو طواها النسيان، مؤلّفات كنت أسمع عنها لكن أبدًا لم أقرأها: **لعبة الخميلة** لآدم الأحدب، **أعمال بيرسيلس وسيخسموندا** لسرڤانتس، **فيدرا** لروترو، **تربية النساء** لشودرلو دي لاكلو، **لوسندا** لفردريش شليگل، **الأعمال الأولى** لبلزاك، **نوفمبر** لگوستاف فلوبير، وقائع پولي ـ ملاسّي ونيتمن... وأعفي القارئ من لائحة قراءاته بالعربيّة، ذات العناوين الغريبة، الموحية بالأزهار والأحجار الكريمة...

كان يقرأ أيضًا كتبًا شاع أنّها ملعونة. وذات يوم أهداني **أَثَر كتهولهو** للوڤكرافت، موضّحًا أنّ هذا الكتاب، حسب شائعة راسخة، يجلب النحس لمن يقرأه. أكان يحاول الهزء بي وهو يهديني كتابًا لا يُقرأ ويُسهب حول سمعته الوبيلة؟ غير أنّه لا بدّ خمّن أنّي لن أقرأه. لكن ربّما كان يبالغ في تقدير طاقتي ويبحث عن تواطئي: نحن، أنا وأنت، فوق هذا الشكل من التطيُّر. بالطبع، رتّبت **أثر كتهولهو** في ركن رفّ من مكتبتي، وحتى الساعة لم أفتحه.

لمّا حانت لحظة إعداد بحث الإجازة، تنازل كملو ليشتغل على عمل أدبيّ معروف، غضّ ومُجمَع على تقديره، **بلامي** لموپاسان. عَنْوَن بحثه بـ **جورج ديروا** أو **مركّب سندريون**. موضوع هامّ، وأنا مضطرّ للقول إنّه عالجه ببراعة. قصّة جورج ديروا (وهو، كما يوضّح موپاسان، شخصيّة «بها فتنة القَدَم»)، مقروءة وفق الإضاءة غير المسبوقة التي يَعِدُ بها العنوان، تكتسب دلالة جديدة، وفي بداهة صاعقة، تبدو كإعادة كتابة لحكاية شارل پيرو.

بعد ذلك بقليل، لمّا فكّر في تسجيل موضوع أطروحة، شجّعته كي يواصل الطريق نفسه، ويدرس الأساس الأسطوري لمجموع أعمال

موپاسان. لكن لدهشتي الكبيرة، قرّر الاشتغال على **الليالي**. إذْ أثناء ذلك صدر بحثي عن النوم، **ليالي السّهاد**، حيث أبرهن بدلائل لا تُدحَض (على أيّ حال، لا أحد حتى الآن حاول مناقضتي) أنّ الملك شهريار لم يكن ينام أبدًا، وأنّ أرقه المزمن كان، بنصيب كبير، في منشأ جنونه القاتل. كانت قراءة هذا البحث، فيما أظنّ، هي التي دفعت إسماعيل كملو إلى تغيير منظوره والتصدّي لمجال آخر من الدراسات.

لم يبهجني ذلك بتاتًا. كنت، بالتجربة، أعرف الصعوبة الملازمة لدراسة **الليالي**، كتاب شاسع، لم يكن، بمعنى ما، واحدًا من الكتب. لكن ليس هذا ما كان يغضبني في مشروع هذا الطالب من طلبتي. منذ زمن بعيد، ربّما منذ الطفولة، كنت أحسّ نفسي مدينًا نحو هذا العمل. إحساس مشترك جدًّا: لاحظت أنّ عددًا من الذين يكتبون عنه يفعلون ذلك عرفانًا بالجميل: لقد رافقهم طوال حياتهم، وجلب إليهم المتعة، وبالنسبة للبعض، كان أوّل ما قرأوا. وفيما يخصّني، بعد أن أصدرت **ليالي السهاد**، أحسست أنّي قد استوفيت دَيْني، دون أن أدري لمن أو لماذا. فما إن أنهيت عملي حتى أعدت، بإحساس من الراحة والخلاص، إلى الخزانة، الكتبَ المستعارة، وركنت الطبعات والترجمات التي كنت أملكها، ورتّبت الوثائق المستعملة، من ملفّات، وتصاميم، ومستنسخات، ونظّمت مكتبي وجعلت كلّ ورقة، وكلّ شيء في موضعه اللائق. أخيرًا، بلذّة نادرة، مزّقت مسودّاتي.

ما كنت أريد سماع شيء من بعدُ عن **الليالي**، كنت أمتنع عن قراءة ما يُكتب عنها وكنت أهتف باحتقار لمّا يشير أحدهم، معتقدًا إرضائي، إلى صدور دراسة جديدة. دراسة أخرى عن شهرزاد! لم أكن أتمالك من أن أغمغم بخبث، مستشهدًا بمثل توراتي: «حتى شاؤول يتنبّأ»!

لا بدّ من القول إنّني، فورًا بعد أن أصدرت كتابي، أصابني اكتئابٌ خطير. الناس يمتدحون الفضائل العلاجيّة للحكايات، لكنّ **الليالي** كان تأثيرها عليّ بالأحرى ضارًّا. ألا يُقال إنّها تجلب الشؤم على من يقرأها حتى آخِرِها؟ صحيح أنّني عالجت موضوعًا لا يلائم كثيرًا تيقّظ الانتباه... الواقع أنّ زمام حياتي كان يُفلت منّي كلّيًّا، كنت أحيا مثل مُسَرْنَم. أتظاهر بتأمين دروسي، والحضور في اجتماعات الزملاء، والمشاركة في لجان مناقشة الأطروحات. قاعدة حياتي، التي لا أنطق عنها بوضوح لكن أجترّها طوال اليوم، كانت: دعوني وشأني! كان يستبدّ بي الهلع كلّما رنّ جرس الهاتف أو دقّ أحد جرس الباب، ما عدت أهتمّ بعملي ولا بالناس من حولي، لا أراهم، ولا أسمع إليهم بتاتًا، لا أكاد أنتمي إلى هذا العالم.

اليوم حيث تحسّنت حالي قليلاً، ألاحظ بمرارة أنّي قد فاتني كثير من الأشخاص كانوا يحبّونني، وكثير من الكتب التي وقعت في يدي وكنت عاجزًا عن قراءتها.

أعيتني الحيلة، فقبلت الإشراف على أطروحة كملو. لم يكن بإمكاني، مُخْلِصًا، أنْ أنكر مزاياه الفكريّة، وفوق ذلك (أينبغي أن أقول هذا؟)، كنت أريد أن أصفّي أموري معه: كان يقرأ لي (الوحيد من طلبتي الذي يفعل ذلك، ربّما لأنّني قد نوّهت به)، كان يعرف أدنى كتاباتي، حتى تلك التي أودّ أن تُنسى. كان ذلك بالتأكيد رائقًا، لكنّه يخلق عندي التزامًا غامضًا، واجب أن أهتمّ به ولو قليلاً، أن أتكفّل به.

لمّا استفسرت عن الموضوع الذي ينوي معالجته، تردّد لحظة، ثم انطلق في خطاب بدا لي مختلطًا، وخلص إلى القول إنّه يفكّر في أن يجعل عنوانًا لعمله **الجنون الثاني لشهريار**. فردَدت عليه أنّ هذا ليس،

بحصر المعنى، موضوعًا لأطروحة، وأنّ المؤسّسة الجامعيّة لا يمكنها الموافقة عليه، هو بالأحرى عنوان عمل تخييلي، وعند الاقتضاء عنوان محاولة نقديّة. أثناء هذا اللقاء، كانت بالضبط بين يديّ أطروحة ضخمة تسلّمتها آنفًا عن الجدليّة الكتابيّة ـ القرائيّة في **الإمتاع والمؤانسة** للتّوحيدي. «هذا موضوع جادّ، علميّ»، قلت له، ليس دون سوء نيّة، لأنّ هذا العنوان كان يفزعني وأرتاب في كونه يُخفي فراغًا عظيمًا. هزّ كملو رأسه، كمن يقول: الجدليّة الكتابيّة ـ القرائيّة، أيّ حذلقة! كان متشبّثًا بموضوعه وانطلق من جديد في تفسيرات طويلة. ولأضع حدًّا للحديث الذي لم أعد على أيّ حال أسمع له، طلبت منه أن يحرّر تقريرًا. تلك لم تكن فقط طريقة لأتخلّص منه: إداريًّا، لا بدّ من إرفاق تقرير بملفّ التسجيل.

بعد أسبوع أو أسبوعين، سلّمني نصًّا من حوالى عشر صفحات وعدته بقراءته، لكنّني طويته بعد أن تصفّحته سريعًا. لمّا حان وقت نقاشه، تظاهرت بأنّي قرأته. وأنا أقلّب الصفحات، أبصرت مصادفة عنوانًا لإدگار آلن پو، «حكاية شهرزاد الثانية بعد الألف». ولأقول شيئًا، ذكرت أنّ هذه القصّة لم ترقني كثيرًا. بذلك تمكّنت من بدء حديث مع كملو، وبفضل جهد عظيم من التركيز، توصّلت إلى فهم أنّ دراسته تتناول خاتمة **الليالي**. لم أكن أرى مانعًا أن يجعل منها موضوع أطروحته، لكن كانت توجد سلفًا مقالة عن هذا الموضوع، «الخواتيم المهملة لـ **الليالي العربيّة**» لهينز گروتزفلد. ضبطت نفسي في اللحظة المناسبة عن ذكرها. وإذا كان كملو قد تحدّث عنها في تقريره؟ ألقيت بنظرة على الببليوغرافيا: المقالة موجودة فيها. لأخفي اضطرابي، سألته عن رأيه فيها. أجاب إنّه يقدّرها كثيرًا، لكنّه، هو، يفكّر في نهاية لم تُذكر فيها. ظننت حينذاك أنّه اكتشف مخطوطًا يتضمّن خاتمة مختلفة

وأنّه يعتزم إنجاز طبعة محقّقة له. اتّفقنا أخيرًا على أن يُلحق بالعنوان الذي يحرص عليه، عنوانًا فرعيًا، **خاتمة للّيالي لم يسبق نشرها**.

ولمّا نصحته الاتّصالَ بالباحثين، عبر العالم الذين يشتغلون في المجال نفسه، خِلْتُ فيه إحساسًا بالتحفّظ. كان يبدو أنّ لديه سرًّا لا يرغب في الكشف عنه قبل الأوان، ربّما كذلك كان يحذر منّي، الله يعلم لماذا. مهما يكن، كان لديّ انطباع بأنّه يلزم الصمت حول فكرة يبدو مأخوذًا بها. كلّ هذا مع ذلك كان غائمًا في ذهني، لأنّني في ذلك الوقت، كما قد قلتُ، كنت عاجزًا تمامًا عن رغبة الاستطلاع.

بعد أن سجّل موضوعه، اختفى كملو. وطوال ثلاث سنوات، لم أره. كان مع ذلك يبعث بإشارة منه عند رأس السنة.

من نيويورك، بعث بعدد من Times Literary Supplement به مقال حول كتاب كنت كتبته في بداية مساري الجامعي، حول شعريّة الانتحال، والذي صدرت عنه مؤخّرًا ترجمة إنجليزيّة. كان عنوان المقال مُلغّزًا: «Devil on her Ring» (الشيطان على خاتمها). ومع تقديري لجمال هذا العنوان، لم أكن أتبيّن العلاقة بمضمون كتابي. لكنّي تذكّرت فيما بعد أنّني قد رويت، عَرَضًا، نادرة تتعلّق بامرأة رغبت في نقش صورة الشيطان على خاتمها، فعيّنت للصائغ نموذجه في الجاحظ، المعروف بدمامته المنفّرة، والذي كان يعبر الطريق في تلك اللحظة بالذات... كاتب المقال، باستبصار وأناقة، يربط هذه الحكاية بفصل من الحكاية ـ الإطار في **الليالي** حيث امرأة سجينة عند عفريت، تخونه باستخفاف وتجمع خواتم عشّاقها، خمسمائة وسبعون في المجموع...

بعث لي كملو أيضًا بطاقة من دمشق حيث كتب إنّه قد ذهب إليها لمحاورة الحكواتيّين، خصوصًا المسمّى نَهَى. حيّرني هذا: أما زال يوجد حكواتيّون في مقاهي الشرق الأوسط، فيما الأقمار الاصطناعيّة قد كسحت كلّ شيء في طريقها؟

أخيرًا وجّه إليّ، من باريس هذه المرّة، بمصوَّر مخطوط يوجد في المكتبة الوطنيّة (إحالته هي: باريس، ٦٢٤، رقم ٣٦٤٥). يتعلّق الأمر ب «حكاية عطّاف»، غير الواردة في طبعات **الليالي** المتداولة، لكن رتشارد بيرتون أوردها في المجلّد السابع من **الليالي المُلحقة**. والدكتور مردروس كذلكَ أدمجها في ترجمته الفرنسيّة، تحت عنوان «حكاية الكتاب المسحور». كان كملو يجدها في غاية الطرافة، وكتب: «إنّها بأسلوبها الخفيف، وإيقاعها السريع، وانقلاباتها الفجائيّة، تذكّر بالقصص المرسومة». لكنّ أشدّ ما أثاره هو مفتتحها الذي، كما يوضّح، «يدعم أطروحته عن خاتمة **الليالي**».

أيّ أطروحة، وأيّ خاتمة؟ ختم كملو رسالته بهذه الجملة المُلغّزة: «لو لم تكن هذه النهاية موجودة، لوجب اختراعها». مزْحة دون شكّ، لكنّها مع ذلك محيّرة... ارتبتُ في كونه يحاول أن ينحل خفيةً نهايةً، يكون هو الذي اخترعها، لأحد سابقيه أو لما لستُ أدري من مخطوط معثور عليه.

استبدّ بي الهلع. أطروحة قائمة على مخادعة! أثناء الدفاع عن الأطروحة، سيناقشها الأساتذة دون أن يعلموا أنّ الأمر يتعلّق في الحقيقة برواية. كملو، وهو يهزأ بالمؤسّسة الجامعيّة، سينال ميزة مشرّفة جدًّا مع تنويه لجنة المناقشة والتوصية بنشر عمله. عمل ستكون له كلّ مظاهر أطروحة، تبحّر مذهل، هوامش وفيرة في أسفل الصفحة، بيبليوغرافيا مستقصاة، فهرس أسماء الأعلام والمفاهيم... ستكون

المرّة الأولى في تاريخ الجامعة التي يُقدَّم فيها تخييل بمثابة أطروحة، ويُعتبر أطروحة. . . وبعد نشرها، ستُقرأ، وستُكتب عروض عنها، وذات يوم، سيذهب واحد ليتحقّق، ثم سيهتف بالخديعة. سيبلغ الخبر إلى جامعتي، وتنفجر الفضيحة، وعبثًا أعلن حُسن نيّتي، لن يرغب أحدٌ في تصديقي. سيتحدّثون عن تواطئي، وسيُظهرون شعريّة الانتحال، كتاب خصّصته للمدلّسين، والمقلّدين، والمنتحلين. ويبرهنون على أنّني أعرض فيه وصفاتهم، دون أيّ استنكار بل وبتعاطف. سيرون فيه دفاعًا عن الخدعات الأدبيّة وسيتّهمون إعجابي بالجاحظ الذي تميّز في هذا المجال. ستُدمّر الثّقة بي نهائيًا، سأكون ضحيّة المهزلة، بينما كملو سيتخلّص من الورطة لصالحه، منجزًا أطروحةً وروايةً دفعة واحدة. في العمق، لن يفكّر أحد في لومه هو، كلّ واحد سيكون راضيًا عن خُدعته، ويرى فيها إنجازًا وسيستفيد من ذلك عمله بكلّ تأكيد.

لكنّ كلّ هذا كان قد أملاه الهلع الناتج عن حالتي المتدهورة. أدركت فيما بعد أنّ ذلك لم يكن مقصد كملو، ليس تمامًا.

يبقى أنّه أحضر لي ذات يوم نسخة من عمله والتمس منّي الإذن بمناقشته. أثناء ذلك، كان هلعي قد كسحه لا اكتراثي بكلّ ما يجري حولي. منحته الإذن قائلاً لنفسي: «طيّب، لا شكّ أنّه قارن خواتيم الطبعات العربيّة الموجودة من **الليالي**، طبعة القاهرة، وبيروت، وبرسلاو، وكلكتا، وليدن. . . ولا بدّ أيضًا أنّه قد قارن خلاصة ترجمة الدكتور مردروس بترجمة أنطوان گالّان. وأفترض كذلك أنّه قام بجولة عابرة جهة نسخ رتشارد بيرتون، وگوستاف ڤيل، وإنّو ليتمان. . . ستكون لدينا أطروحة جيّدة صغيرة، ظريفة، بتوثيق كافٍ، لكن دون طموح».

لم أطّلع على عمله إلّا عشيّة مناقشة الأطروحة. الحقيقة، قرأته بإحباط وقلق، مشفقًا من حكم الزملاء الأربعة الذين كانوا يشكّلون لجنة

المناقشة والذين، بدعوى نقد تلميذي، لن تفوتهم مهاجمتي مؤكّدين أنّ إشرافي عليه كان سيّئًا للغاية، وأنا معترف أنّ قولهم لم يكن خاطئًا...

لم أكن فخورًا بنفسي يوم المناقشة، وزملائي أقلّ فخرًا: كان بهم غضبٌ مجنون، لكن لا يُعلنون عنه إطلاقًا. كلّهم مثلي قد انتظروا عشيّة المناقشة لينكبّوا على الأطروحة. لم يناموا الليل، لذا كانوا ممتقعين، شاحبين، في أعينهم الشرّ. كان من السهل حدس علّة حنقهم: لمّا كانوا قد سلّموا الإدارة تزكية، فهم لا يستطيعون التراجع. لو على الأقلّ كانت الأطروحة تتضمّن عيبًا كبيرًا لم يُكتشف إلّا البارحة، سرقة أدبيّة مثلاً، لاستطاعوا فضحها والامتناع عن الاشتراك في المناقشة، لكنّ الأمر لم يكن كذلك، ومن المستحيل عليهم التراجع دون أن يفقدوا كلّ مصداقيّة.

إذ ذاك حقدوا عليّ. حقدوا عليّ ـ وهذا هو الأدهى ـ لأنّهم لم يقوموا بعملهم كما ينبغي... هل أحقد عليهم أنا؟ كنت مذنبًا مثلهم، لكنْ عندي ظرف تخفيف: كنت مريضًا وهم يعلمون ذلك. ألم يكونوا يتهامسون بينهم أنّني قد صرت غريب الأطوار، وأنّه لا ينبغي لي القيام بالتدريس ولا حتى الإشراف على الأطروحات؟ فجأة أبصرتهم على حقيقتهم، في مظهرهم الكاريكاتوري: كسل، إحباط، حياة مريضة، مثلي تمامًا. رحمتهم لحظة: غارقًا في خمودي، لم أكن أراهم حقًّا ولا همّتني مشاكلهم.

لكنّ العلّة الحقيقيّة لغضبهم كانت أنّ كلّ واحد، في تقريره، دون أن يقرأ الأطروحة، وتحت قناع تقديم عرض عنها، قد تكلّم عمّا لم يقله كملو: نسبوا إليه أفكارًا، وتفصيلات، وتحاليل كانوا هم مؤلّفيها. انطلاقًا من العنوان زركشوا، واستهوتهم اللعبة فلم يقاوموا إغواء طرح

فرضيّات. اطّلعتُ على تقاريرهم بعد ذلك بقليل: كانت هذيانًا خالصًا، لا لأنّ ما كتبوه عديم الأهمِّيّة، بل لأنّه لا علاقة لكملو بذلك. ماذا جرى؟ هل جرفهم خيالهم؟ أو أنّه لا يمكن الحديث بتاتًا عن **الليالي** دون تدليس، وتحريف، وخيانة؟

بعيدًا عن كلّ تشاور، ركّز هؤلاء الأربعة على قرار شهرزاد بالكفّ عن السّرد. رأى أحدهم أنّها اكتسبت، بفضل أبنائها الثّلاثة، ما يكفي من النّفوذ لمقاومة الملك. وبحسب الثّاني، قد نفد رصيدها من الحكايات. والثّالث أنها ضجرت من السّرد، وكما التمست في البداية الإذن بأن تروي، فقد التمست الإذن بأن لا تروي، وهي ملاحظة أعترف أنّها دقيقة. الرّابع رأى أنّ الملك قد سئم سماع الحكايات.

يبقى أنّهم وجدوا أنفسهم مجبرين أثناء المناقشة على النطق بخطاب مختلف اختلافًا عريضًا عن ذلك المثبت في تقاريرهم.

هذا عرض وجيز للأطروحة التي يمكن الاطّلاع عليها، للمزيد من المعلومات، في خزانة كلِّيَّة الآداب بالرباط، تحت رقم MD 1715.

تقول السطور الأولى: «اتّجه الاهتمام كثيرًا، منذ بعض الوقت، إلى بدايات ونهايات النصوص، والروايات، والمحكيّات، والقصائد. رولان بارت هو مانح الانطلاقة، بفضل مقال افتتح العدد الأوّل من مجلّة Poétique، عنوانه، كما ينبغي، هو «من أين نبدأ؟» وبعد أنْ مهّد سبيلاً، وروّج لنوع من الموضة، انسحب كعادته بتكتّم ووجّه نظره نحو جهة أخرى (وهو تعبير، كما قيل لي، أثير لديه). لكنّ تابعيه كانوا عرمرمًا وكلّ واحد تهيّأ ليستغلّ وسيلة النجاح هذه، كلّ واحد تقدّم بتحليل مطلعه أو خاتمته. ومن ثم الاهتمام المتعاظم بالحكاية ـ الإطار

في الليالي، التي لم تعد تُحصى الدراسات عنها. لكن من الغريب أنّ نهاية **الليالي** لم تثر الحماس نفسه ونُدرةٌ أولئك الذين درسوها».

بعد ذلك، يتساءل كملو إنْ كان هذا العمل الأدبيّ في حاجة إلى خاتمة، وهل يستلزمها حقًّا. فأكبّ حينئذ على حالة أقدم مخطوط وصلنا، وجليٌّ أنّه مبتور: ينتهي فجأة عند الليلة ٢٨٢، مع حكاية قمر الزمان. وبسبب هذا النقص، يظلّ مصير شهرزاد معلّقًا ويضيع صوتها في ليل لا نهاية له. لكنّ غياب خاتمة الحكاية ـ الإطار هو في الحقيقة، كما يلاحظ كملو، منسجم مع كتابٍ مصيرُه هو أن لا يكفّ عن التوسّع والاغتناء بحكايات جديدة، كتاب هو بالنسبة للبعض **لا نهائيّ**.

لكن أيمكن أن يظلّ مفتوحًا لا نهائيًّا؟ القرّاء، والمستمعون لم يتقبّلوا ذلك. كان لا بدّ لهم من خاتمة. والحال أنّ هذه تختلف باختلاف الروايات. تكاد توجد نهايات بقدر عدد الروايات. وكما توقّعتُ، يقوم إسماعيل كملو بجردها، قبل أن يعلن بلهجة حاسمة: «إذا كان يوجد هذا العدد من الخواتيم، فذلك لأنّ الخاتمة الحقيقيّة قد ضاعت أو طُمِست». وهو يرى في نفسه القدرة على إعادة تركيبها، على الأقلّ سيحاول ذلك، كما يشير بتواضع لم يكن مألوفًا منه.

لكنّه يفهم أن يكون القرّاء في حاجة إلى نهاية سعيدة لتُوَازِنَ البدايةَ الشقيّة. ومن ثم الخاتمةُ التي انتهت بأن تفرض نفسها والتي نجدها، مع بعض الاختلاف في التفاصيل، في معظم الطبعات. يستتبّ النظام، لكن بأيّ ثمن من ضروب المحال والخروج عن القياس!

في المقام الأوّل، يعلم الملك أنه أبٌ لثلاثة أولاد. . . فيثور كملو: ألم يتبيّن شهريار في أيّ لحظة الحمل المتتالي لشهرزاد؟ ألم يعلم بولادة أطفاله، في حين أنّ مجيء وريث إلى العالم هو حدث ذو أهمّيّة

رئيسيّة، خصوصًا في نظام حكم مطلق! أأعماه حقده إلى هذا الحدّ؟ من الصعب تصديق ذلك. (الأدباء المعاصرون قد حلّوا المسألة على طريقتهم حيث لم يثقلوا الراوية بأيّة ذرّيّة)...

لكنّ أكثر ما أحنق كملو هي السطور الأخيرة التي تورد أمر الملك للكتّاب بتدوين الحكايات التي روتها شهرزاد: «عجّل بإحضار أمهر كتّاب البلاد الإسلاميّة، وأشهر أصحاب التواريخ، وأمرهم أن يكتبوا جميع ما جرى له مع زوجته شهرزاد، من أوّله إلى آخره، دون إغفال تفصيل واحد. فشرعوا في العمل، وكتبوا ذلك، بماء الذهب، ثلاثين مجلّدًا، لا ينقص واحد ولا يزيد».

وباستخفاف غمرني بالدهشة، كسح هذه الخاتمة بجرّة قلم، طامحًا للبرهنة على زيفها. فيزعم أنّها «مصطنعة، واهية، غير مقبولة»، مسلّمًا بأنّها على الأقلّ مبتورة، متأسّفًا في نفاق بأنْ لا أحد قبله قد تنبّه لذلك. أعترف أنّني لم أدرك على الفور ما كان يزعجه في الخاتمة المعترف بها تقليديًّا، ولم أعلم ذلك إلّا بعد أن قرأتُ القسم الثالث والأخير من الأطروحة، لكنّ قلقًا مكتومًا كان سلفًا يعتصرني.

في القسم الأوّل بعنوان «قرّاءٌ قَتَلة»، عكف كملو على الكتّاب والشرّاح الذين تخيّلوا نهايات أخرى، ببساطة لأنّ تلك الموجودة، «بافتقادها للضرورة»، لم تكن ترضيهم بتاتًا: «الجميع يرتضونها في الظاهر، لكن لا أحد، في العمق، يغتبط بها، من ثم كانت الحاجة إلى تعديلها. الليلة الواحدة بعد الألف لا تختم شيئًا، تظلّ مفتوحة، وتستمرّ إعادة كتابتها. الشعراء والناثرون نتيجة لذلك استفرغوا جهدهم في

تمديدها، ومنحها تتمّة بإيراد الليلة الثانية بعد الألف، أو للتنويع وللمزايدة، الليلة الثالثة بعد الألف، إلخ».

يلاحظ إسماعيل كملو أنّ إدگار آلن پو وثيوفيل گوتيي مثلاً، كلّ منهما في ليلته الثانية بعد الألف، قد «صحّح» نصّ **الليالي** بجعل شهرزاد تُقتَل. ما لم يفعله شهريار، هم فعلوه: ما إن تسكت حتى يعدموها، حتى دون انتظار الصباح... مفارقة مُدوِّخة: الملك يعفو عنها من القتل، بينما هم حكموا عليها به حكمًا مبرمًا، فبانوا بذلك أكثر دمويّة وقسوة. كتّاب عديدون آخرون سيقتفون خطاهم وسيعدّلون الخاتمة في اتّجاه البداية، أي أنّ كلّ شيء يبدأ ثانية، ويتغلّب الجنون. فيؤكّد كملو، دون تمييز، أنّ في داخل كلّ قارئ شهريار غافيًا.

ومحاولاً تفسير لماذا عدّل الأدباء في الخاتمة، قال إنّ ذلك لأنّهم لم يعتبروها جديرة بالمفتتح. البداية، ما نسمّيه الحكاية ـ الإطار، تامّة، لا شيء يُضاف إليها أو يُنتقص منها، فضلاً عن أنّ أحدًا لم يجازف بذلك. لا أحد اجترأ على تعديلها، وإعادة كتابتها، فظلّت سالمة. وبتبصّر، لا يستبعد كملو مع ذلك أن لا يكون لهذا المفتتح تاريخ قبليّ، وأن لا يكون بالتالي نتيجة إعادة كتابةِ نصّ سابق، لكنّه في صورته الحاضرة، وباستثناء بعض التفاصيل، لم يتغيّر منذ قرون.

ليس هذا كلّ ما في الأمر: لا كاتب حديثًا قد تخيّل ما قبل النصّ، لا أحد غامر بالصعود قبل المفتتح. لا أحد وصف مثلاً لقاء الملك شهريار مع تلك التي ستصير زوجة له غير وفيّة. موضوع جيّد، لحظة التقت العين بالعين! أيّ عشق كاسح جذبهما، أحدهما إلى الآخر؟ أيَّ مِحَن اجتازا قبل أن يتزوّجا؟ وماذا حدث بعد ذلك؟ خمد العشق وبحثت الملكة عن سعادتها في جهة أخرى. مثل هذه الحكاية ليست غريبة عن **الليالي**، بل هي موجودة فيها: تلك هي حكاية قمر

الزمان والأميرة بدور، لكن لا أحد استغلّ هذه المادّة.

أعترف أنّ هذا الاستطراد لم يرقني، وكذا أعضاء اللجنة الآخرين الذين لاحظوا، فضلاً عن ذلك، أنّ الرغبة في تعديل خاتمة كتاب لا تنطبق فقط على **الليالي**، بل على أعمال أخرى عديدة، وربّما عليها كلّها. لكنّهم قدّروا فكرة أنّه على العكس، لم يحاول أحد أبدًا تقريبًا أن يعدّل بدايات المحكيّات.

وفي مجمل الاعتبار، فهذا القسم لم يُثر في الحقيقة تحفّظات. لكنّهم نبّهوا كملو إلى أنّ الاهتمام بالحكاية ـ الإطار ليس صادرًا عن تأثير رولان بارت، وأنّ الدراسات التي عالجته تفوق في العدد مجموع مشتركي الهاتف في المغرب بأكمله. وعجبوا أيضًا من أن يكون كملو قد أغفل الحديث عن كتّاب آخرين «صحّحوا» نهاية **الليالي**، الروماني نيكولاي دڤيدسكو مثلاً، لكن أخذوا عليه خصوصًا أنّه لم يستشهد بالكتّاب العرب في القرن العشرين، شعراء وروائيّين، الذين استلهموا **الليالي**. أكان يجهل أعمالهم أو رأى أنّها لا تستأهل الاهتمام؟ استشعر كملو فخًّا (أيًّا كان جوابه، فهو الخاسر)، فراغ عن السؤال ببراعة.

القسم الثاني من العمل عنوانه «عطّاف ودانيال». شخصيّة من **الليالي** فعلاً اسمها دانيال (في «حكاية حاسب كريم الدين»)، لكن ليست هي التي يُحيل عليها كملو. البطل المقصود ليس سوى النبيّ التوراتي.

في البدء، يُذكّر أنّ الدارسين قد أقاموا منذ زمن طويل الصلة بين شهرزاد وأستير: أستير الجميلة تُخلّص شعبها بفضل موقعها عند الملك أحشويروش؛ شهرزاد من جهتها تُخلّص النساء، وإذن شعبها. هذا

الترابط ليس دون أهمّيّة، لكن لا أحد، كما يلاحظ بجذل بلغ من وضوحه أن صار مُحرِجًا، قد فكّر في دانيال. ما هذه الصّلة، المُعلَن عنها بطنطنة، بين **الليالي** وقصّة هذا النبيّ؟

معتمدًا على مردروس، وساعيًا وراء هدف سرّي وماكر، يباشر كملو تحليل حكاية عطّاف التي كان قد ذكرها لي من قبل في رسالته من باريس. في الواقع، ركّز اهتمامه على مطلع هذه الحكاية التي يرى أنّها «تُتيح إيضاح خاتمة كتاب **الليالي**».

يُروى فيها أنّ الخليفة هارون الرشيد، في ليلة من الليالي، «قام من فراشه، منقبض الصدر»، فدعا بوزيره جعفر الذي اقترح عليه القراءة علاجًا. فتح عدّة من الكتب «فوقعت يده على كتاب عتيق فتحه اتّفاقًا. فوقع على شيء أخذ باهتمامه... وها هو فجأة شرع يضحك حتى استلقى على قفاه. ثم أخذ الكتاب ثانية واستمرّ يقرأ. وها هي دموع تسقط من عينيه؛ وطفق يبكي حتى اخضلّت لحيته».

في حكاية أخرى، «التاجر والعفريت»، تنتقل ابنة صاحب مزرعة بلا تمهيد من الضحك إلى العَبَرات. ولمّا سألوها أجابت لماذا فعلت «في ذات الوقت أمرين بهذا التناقض»، فتعود الأمور إلى مجراها. لكنّ ضحك الخليفة ودموعه ستظلّ دون تفسير. ولمّا سأله الوزير جعفر «عن علّة ضحكه وبكائه تقريبًا في الوقت ذاته»، غضب غضبًا عظيمًا وصاح: «يا كلب الوزراء... ما هذه الجراءة منك؟» وليس معروفًا كذلك سبب هذا الغضب. الفضول المحرَّم؟

الواقع، يلاحظ كملو الذي اطّلع على المخطوط العربيّ في المكتبة الوطنيّة وكذا نسخة بيرتون، أنّ مردروس قد أغفل فقرة حيث الوزير، وقد تعجّب من سلوك الخليفة، الذي يضحك ويبكي في الوقت ذاته، قال إنّ المجانين هم من يفعل هذا. ومن ثم غضبُ هارون

الرشيد، الذي أمره بتنفيذ مهمّة في غاية الغرابة: «بحياتي! قد دخلت فيما لا يعنيك، فلا بدّ لهذا الأمر من عواقبه. آمرك بإحضار من يقول لي لماذا ضحكتُ وبكيتُ لمّا قرأتُ هذا الكتاب، ويعرف ما فيه من الصفحة الأولى حتى الأخيرة. وإذا لم تجد هذا الرجل، ضربت عنقك، وبيّنت لك آنذاك ما الذي أضحكني وأبكاني».

الخليفة يطلب المستحيل من وزيره. فكيف يمكن كشف محتوى كتاب لم نقرأه ونجهل عنوانه ومؤلِّفه؟ أيوجد مشهد مماثل في الأدب؟ كملو لا يعرف سوى مشهد واحد، في **التوراة**، عند بداية سِفْر دانيال، لمّا اختبر الملك نبوخذ نصّر الكهّان حيث أمرهم لا بتأويل حلمه، بل كشف محتواه:

«وفي السنة الثانية من عهد نبوخذ نصَّر الملك، حلم نبوخذ نصّر أحلامًا أزعجته ومنعت عنه النوم. فأمر أن يُدعى السحرة والمجوس والعرّافون والمنجّمون [. . .] فقال لهم: حلمتُ حلمًا فانزعجت، وأريد أن أعرف ما هو. فأجابه المنجّمون [. . .]: أخبرنا بالحلم فنبيِّنَ تفسيره. فقال لهم الملك: قلتُ ولا مردّ لقولي: إنْ لم تُعلِموني الحلمَ وتفسيره أُقطِّعكم قطعًا وأجعل بيوتكم مزابل».

الملك يطرح لغزًا على المنجّمين وينذرهم بالقتل إنْ لم يفكّوه. ها هم مأمورون بأن يرووا له حلمه، فيما لا يتوافرون على أيّ علامة ولا أيّ أثر. وكأنّ السفينكس كان يسأل أوديب لا أن يفكّ اللغز المشهور، ولا أن يُجيب عن السؤال، بل أن يكشف عن السؤال ذاته الذي يتأهّب ليطرحه عليه!

مطلب خارقٌ من نبوخذ نصّر: ليس جديرًا بتأويل الرُّؤى إلّا ذاك القادر على كشفها: «أنبئوني بالرؤيا وسأعلم أنّكم قادرون على إعطائي التفسير». ذهب كملو بهذه الفكرة إلى أقصاها، وفي حميّة برهنته،

أضاف بمكر، بين قوسين، أنْ ليس جديرًا بتأويل عمل أدبيّ، **الليالي في** هذه الحالة، إلّا القادر على كتابته. هذه الملاحظة الأخيرة ملتبسة وبالغة الغموض، بل مقلقة. لم يَغفل أعضاء اللجنة عن إثباتها ضدّه أثناء مناقشة الأطروحة.

ولإرباكه أو ببساطة للتنكيد عليه، نبّهوه إلى أنّه في أطروحة مخصّصة لخاتمة **الليالي**، ينحصر هذا القسم الثاني في تحليل البدايات، بداية حكاية دانيال وبداية حكاية عطّاف.

ونبّهوه كذلك أنّ العنوان المختار لهذا القسم، «عطّاف ودانيال»، غير ملائم، لأنّه، في حاصل الأمر، لم يتحدّث لا عن هذا ولا عن ذاك. كان العنوان سيكون بالأحرى «نبوخذ نصّر وهارون الرشيد». وأفضل من ذلك، كما اقترحوا بأناقة، كان ينبغي أن يكون عنوانه «أنبئوني بالرؤيا».

وذكّروا أخيرًا أنّه ليس من النادر، في المؤلّفات عن تراجم الأولياء، أن يكشف أولياء عن الأفكار المستورة لمخاطبيهم.

لكن فيما عدا هذه التحفّظات، أثنوا بحرارة على هذا القسم الثاني. وأجمع الكلّ على القول إنّ الإحالة على دانيال صارت من الآن مكسبًا ولا يمكن الاستغناء عنها في الأبحاث المقبلة حول **الليالي**.

بالمقابل، حكموا بالفضيحة على القسم الثالث، ذي العنوان المُلغز، «الجنون الثاني لشهريار». الظاهر أنّ هذا القسم هو الأهمّ بالنسبة لكملو، وليس القسمان الأوّلان موجودين إلّا لتعليله ومنحه ضمانة علميّة غائمة.

مرّة أخرى، يعتمد فيه نبرة سِجاليّة فيهاجم كلّ أولئك الذين انكبّوا على خاتمة **الليالي**، باحثين، ونقّادًا، وكتّابًا. ويرى أنّهم أخطأوا الجوهر بحصر اهتمامهم في شهرزاد، ناسين بذلك شخصيّات أخرى، نمطًا آخر من الشخصيّات: الكتّاب الذين، بأمر من الملك، قد دوّنوا كلّ ما حصل له مع زوجته.

قبل تعميق هذه الفكرة، يشير كملو إلى أنّ كلّ أولئك الذين بالغوا في الإشادة بالخاصّيَّة العلاجيّة للحكايات يتعلّلون بالأوهام. وأنا، في هذه النقطة، أراه مُحقًّا تمامًا، أنا الذي انطرحتُ مريضًا بعد أن اشتغلتُ على **الليالي**. يؤكّد كملو أنّ شهريار يتعذّر علاجه، وينطلق بهذا الخصوص في تحليل طويل من مستوى سيكولوجي، وجدته مُملًّا، ثقيلاً، غير مقنع (قلتُ له هذا). بالمقابل، أعجبني عرضه عن شهريار الذي تخلّى عن قتل شهرزاد، لا لأنّها سردت عليه حكايات جميلة، بل لأنّها أنجبت له أبناء ثلاثة. لاحظ التظاهر باعتقاد أنّ الحكايات تبرئ الناس من الحقد وتُخلّص مَن هم في ورطة. هذه الفكرة تُتقبَّلُ بالقدر الذي يُراد به الاعتقاد بسلطان الأدب. غير أنْ لا بدّ لهذا من جرعة قويّة من التفاؤل. الأدباء، على كلّ حال، لا يؤمنون بذلك، هم الذين يجعلون راوية الحكايات تموت. وقد أخطأوا مع ذلك في هذا الفعل. حقًّا لم ينقطع جنون شهريار، إنّما بدّلَ موضوعه فحسب: لم يتعرّض لشهرزاد، بل للكتّاب...

«في الليل لا ينام، لا يقدر على النوم. يهيم في قصره مثل روح مُعذَّب. أيفكّر في ضحاياه؟ بلا شكّ، لكن أيضًا في الأماسي الجميلة التي قضاها يسمع لشهرزاد. شهرزاد التي لا شيء عندها الآن ترويه...».

صاحب هذه السطور، بحسب كملو، هو نَهَى، الحكواتيّ

الغامض الذي التقاه أثناء إقامته بدمشق. لا حاجة للقول إنّي حنقت على أنْ أصادف في كلامه فكرةً، كنت أعتبرها من ابتكاري، عن امتناع النوم عن شهريار...

«شهرزاد لا شيء عندها الآن ترويه، سوى تفاصيل عن أمراض أولادها ومتاعبهم الجسديّة. حول هذا الموضوع، كان حديثها لا ينضب، هناك دائمًا طفل عليل يتطلّب عنايتها. لمّا كان شهريار يأتي ليراها، يلقاها عند سرير هذا أو ذاك، في مناخ مسيخ من الجروعات، والمراهم، والتباخير. بشكل غير محسوس، أدرك أنّها من الآن في مكان آخر، في عالم منفصل، عالم غريب لا موضع له فيه. آنذاك فكّر في الكتّاب الذين بمستطاعهم أن يستعيدوا له حكاياتها. دعا بهم إلى قصره، وأمرهم أن يكتبوا جميع ما جرى له مع زوجته، من المبتدا إلى المنتهى. فرحوا بهذا التشريف الممنوح لهم وأجابوا بالسمع والطاعة. بعد أيّام، رجعوا إلى القصر واستأذنوا في تسليمه النصّ المكتوب. تعجّب غاية العجب من سرعة إنجازهم لمهمّتهم. كيف، أيّام فحسب لتدوين حكايته مع شهرزاد، الممتدّة على سنوات عديدة! تلقّاهم وما كان أشدّ دهشته لمّا لم يُحضروا له إلّا حوالى عشرين ورقة. تصفّحها سريعًا: كانت تتضمّن بالفعل كلّ ما جرى له، ما ابتُلي به في البداية، والحيلة التي احتالتها شهرزاد لتصل إليه بمثابة راوية، والأثر الطيّب لحكاياتها، وأخيرًا الشفاء والنهاية السعيدة.

التفت إلى الكتّاب وسألهم:

ـ أين البقيّة؟

ـ أيّة بقيّة، أيّها الملك السعيد؟

ـ لكنْ ما روته لي شهرزاد في ألف ليلة وليلة. أين حكاياتها؟

اضطرب الكتّاب وردّوا بأن لا علم لهم بها.

ـ ما كنّا حاضرين وشهرزاد تروي حكاياتها لك، أيّها الملك السعيد، ولأختها الصغرى دنيازاد. لذا نحن في جهل بمحتواها. لا نعلم إلّا حكايتك وما حصل لك، الجميع، على أيّ حال، يعلمها، لكنّنا سجّلناها كما أمرتنا وها هي الآن بين يديك.

غضب الملك غضبًا ما عليه من مزيد، وصاح بهم:

ـ يا كلاب الكتّاب، لو أنتم كتّاب، لكنتم قادرين على كتابة حكايات شهرزاد. إذا لم تفعلوا، وتسلّموني كتابًا فيه جميع الحكايات، منذ المبتدا حتى المنتهى، دون إغفال تفصيل واحد، سأعرف آنذاك أنّكم دجّالون وسينزل بكم عقاب شديد: سأضرب كلّ يوم عنق واحد منكم حتى أفنيكم جميعًا».

هكذا كانت بداية الجنون الثاني لشهريار، حسب حكواتي دمشق الذي يُوقف كملو هنا حكايته ليضع بعض الأسئلة. «ماذا سيحدث آنذاك؟ هل سينفّذ شهريار تهديده؟» أسئلة عبثيّة، بل بليدة، لكن ربّما لم يفعل سوى ترديد الأسئلة، الشكليّة، للراوي الشامي.

بالمقابل، يبدو السؤال التالي صادرًا حقًّا عنه: «لماذا لم يكلّف الملكُ شهرزادَ بمهمّة تدوين الحكايات، هي الموصوفة منذ البداية بأنّها أديبة وتملك ألف كتاب؟» في عرض طويل، يُذكّر كملو بوضع المرأة في الماضي، مؤكّدًا على علاقتها بالكتاب والكتابة. «جاء ذكر مكتبات أدباء، ورجال دولة، خلفاء ووزراء، لكن هل جاء أبدًا وصفٌ لكتب امرأة؟ هذه واقعة جديرة بالاهتمام ويزيد من أهمّيّة مكتبة شهرزاد، لأنّها الوحيدة. كتبها الألف، المذكورة بإيجاز في مطلع **الليالي**، جديرة بأن نهتمّ بها من قريب. لماذا لم يرد ذكرها بعد ذلك؟ لماذا نُسيت، ونهى

وحده الذي لم يضرب صفحًا عنها».

واصل نهى: «استولى الخوف على الكتّاب وكلّ المملكة صارت في اضطراب. علمت شهرزاد بالخبر، فأحضرت إلى القصر الألف كتاب التي خلّفتها في بيت أبيها. ثم استأذنت على الملك، وقالت، مشيرةً إلى الكتب: «ما رويته من حكايات، أيّها الملك السعيد، مكتوبةٌ سلفًا ولا تنتظر إلّا صوتًا لإحيائها. لا فائدة إذن من إعادة كتابتها، هي جميعها في هذه المجلّدات. غير واحدة، تلك التي تخصّك، أيّها الملك السعيد. لكن فضلاً عن أنّ كلّ الناس يعرفها، فالكتّاب قد تكلّفوا تسطيرها بالكتابة. وهذا على أيّ حال ليس غير ذي طائل: يقينًا ستعمر خيال الناس بعدما يذهب بنا مفرّق الأحباب، ومخرّب القصور ومعمّر القبور، المُقدَّر، المحتوم».

هكذا فالكتاب المطلوب كتابته كان مكتوبًا سلفًا. مفارقةٌ ستجد صدى لها في خاتمة **بحثًا عن الزمن الضائع**، استخلص كملو.

حقًّا، كما سجّل زملائي، أنْ لا أحد فكّر في الكُتّاب والملحوظة حول عجزهم عن كتابة الحكايات صائبةٌ. لكن ألم يبالغ كملو في إضفاء الأهمّيَّة على ما ليس، في محصّل الأمر، سوى تفصيل، مراسيمُ اختتامٍ نصادفها في نهاية عديد من حكايات **الليالي**؟

في العمق، كما أضافوا، وراء حكاية الكُتّاب هذه، البارعة حقًّا، نصادف موضوعًا عالجه عديد من الكتّاب العرب، وقد سحرهم شهريار الذي يتحوّل، تحت أقلامهم، إلى طاغية يلاحق المثقّفين ويضطهدهم.

لكنّ ما يؤاخذون به خصوصًا كملو، هو تصديقه لأقوال راوٍ

شعبيّ. أكان هذا الأخير ينقل مأثورًا سرديًا أم قد تخيّل هذه الحكاية، نكتة ابتكرها توًّا لإرضاء كملو الذي كان يبحث عن خاتمة لم يسبق نشرها؟ من هو نَهَى بالضبط؟ كنّا نحبّ أن نرى صورة أو أيّ وثيقة تثبت وجوده. ما أكثر ما أورد كملو اسمه. نهى أخبرني أنّ... هذا يذكّر كثيرًا بلازمة جاك القدريّ: قبطاني أخبرني أنّ... غريب هذا الاسم، نَهَى، الذي معناه: «زجره ومنعه شيئًا»، أو بنطق مغاير، نَحَى: «قصد مكانًا، شخصًا». لا أحد أبدًا تسمّى بهذا الاسم ولا شاهِد عليه في أيّ مكان. لو على الأقلّ كان نُهى، «العقل، الفكر»...

قالوا له: «من حقّك أن تقترح خاتمة مستحدثة، صورة جديدة للرّاوي، لكن لماذا التستّر على ذلك وراء تبحّر باطل؟ في البحث الأكاديمي، هذا عدم أمانة خالص. لماذا لم تقدّم عملك، مثل آخرين كثيرين، بوصفه الليلة الثانية بعد الألف»؟

في تلك اللحظة، استشعرتُ مثل هزّة في كلّ كياني. كنت أصغي لزملائي وإذا بترابط غير متوقّع يفرض عليّ نفسه، استنارةُ بداهةٍ مبهمة. نحى: ألا يكون بالفرنسيّة جناسًا مقلوبًا لاسم الماروني حنّا، الراوي الذي عرّف گالّان، أوّل مترجم لـ **الليالي**، بمقدار كبير من الحكايات الجميلة؟

بعد عام ونصف تقريبًا، أصدر كملو أطروحته. السيّدة لـ... التي كانت عضوًا في لجنة المناقشة، هي التي أخبرتني بالهاتف. لم تتوصّل بنسخة واطمأنّت لمّا أخبرتها أنّني لم أتوصّل أنا أيضًا بشيء.

قالت: «تصفّحت الكتاب في مكتبة. لن يخطر لك أنّني سأنفق مالاً لأقرأ حماقات البغيض إسماعيل كملو، الذي ينبغي أن تعلم أنّه لم

يذكر لا اسمك ولا اسمي ولا أسماء الزملاء الآخرين. يبدو كأنّه سعى بعنف إلى قطع كلّ صلة بنا... والأخطر أنّه لا يوضّح أنّ الأمر يتعلّق ببحث جامعيّ، نوقش في زمان معيّن ومكان معيّن. نشره على علّاته، دون اعتبار لملاحظاتنا. كلّ هذا القدر من الصفاقة، والجحود... بالمقابل، أهدى كتابه إلى المسمّاة إيدا. أليست واحدة من طالباتنا السابقات؟ الإضافة الوحيدة التي جاء بها هي جملة توجد في آخر نهاية كتابه. ها هي: «كلّما قرأ شهريار، ليلاً، واحدًا من كتب شهرزاد الألف، كان يقهقه ضاحكًا ويدمع باكيًا، تقريبًا في الآن ذاته».

معادلة الصيني

في ذاك الزمان، كنت أغبط كلّ الذين لهم شرفة أو نافذة تطلّ على الشارع. يمكنهم الارتفاق عليها، ينظرون هنا وهناك، يركّزون انتباههم على وجه من الوجوه، يتابعون بأعينهم المارّة... كنت أغبطهم لأنّ الاستديو الذي كنت أسكنه في الطابق الثالث من عمارة قديمة فَتْحته الوحيدة كانت نافذة تطلّ على فناء داخليّ ضيّق. نافذة مِقْصَليّة بزجاج مُخشَّن: حركة خاطئة منّي وستسقط، إنْ لم يكن على رأسي، فعلى يديّ اللتين ستسحقهما.

ذلك، على كلّ حال، ما تتمنّاه الجارة قبالتي. كانت حاقدة عليّ، رغم أنّي لم أرتكب في حقّها أيّ فظاظة، على أيّ حال، لا شيء يستوجب العقاب.

لم أتقاطع معها أبدًا في الشارع أو في سلّم العمارة. فضلاً عن أنّني لم أكن أغادر بتاتًا بيتي، إلاّ من وقت لآخر في المساء لإخراج صفيحة القمامة، أو لشراء بعض المؤن من بقّال الدّرب الذي كنت أحد زبنائه النادرين. لم أكن أعرف شيئًا عنها، فقط اسمها، آدَا، المكتوب على صندوق الرسائل، لكن هل هو اسمها؟ لم أكن أعرف ماذا تشتغل

في حياتها، ولا كم مدّةً تسكن العمارة؛ اليقين الوحيد هو أنّها كانت موجودة فيها قبلي.

لا بدّ أنّها تحسّ بالضيق في بيتها، لأنّها كثيرًا ما تكون في النافذة. كلّما أخرجتُ رأسي، تتّهمني بأنّني أعرض نفسي للفرجة. لا شكّ أنّها كانت ترى في بهلوانيّاتي طريقة لاجتذاب الأنظار لأجل إثارة انتباهها. الحقيقة مع ذلك بسيطة: لأرى السماء كان عليّ الانحناء، ليس أكثر ممّا ينبغي مع ذلك: لم أكن أستبعد سقطة كانت هي أقصى أمانيها.

كنت أفعل كلّ شيء كي لا أزعجها: أخفض صوت الراديو وأحاول ألّا أظهر إلّا حين أفترض أنّها لا تنظر إلى الفناء. لكن لا يمكنني البقاء محبوسًا في بيتي، أدور تحت نور الكهرباء كما في زنزانة. هذه بالضبط رغبتها. ما إن كنتُ أرفع نافذتي، حتى تُنزل نافذتها. اصطفاقٌ عنيف، خاطف، نهائي. وكأنّها تقول إنّني محكومة بأن أنحبس، وأختنق في بيتي محرومة من الهواء.

فكّرتُ أن أتّصل بها وأؤكّد لها على حسن نواياي إزاءها. كنت أرغب في الإفضاء إلى تسوية بأن أقترح عليها، مثلاً، استعمال النافذة بالتناوب، غير أنّي كنت واثقًا من رفضها لمقاربة من هذا النوع. الغيظ الذي يرتسم على وجهها كلّما أبصرتني! كنت أضايقها من مجرّد ملاقاة نظرتها.

في المساء، عبر الزجاج نصف الشفّاف، كنت أتبيّن شبحها في المطبخ، الغرفة الوحيدة التي أستطيع لمحها. كانت تعدّ عشاءها، لكن ما إن تحسّ بوجودي، حتى تطفئ النور. تشعله من جديد حين أنصرف.

يبدو أنْ لا شغل لها سوى ترصّدي. وإلّا لماذا، كلّما فتحتُ

نافذتي، تكون هي في نافذتها التي تغلقها على الفور بفرقعة؟ كانت تنتظرني، هذا واضح. ومن جهتي، حتى وإن لم أرغب في ذلك، كنت أنظر إلى الخارج، لا لشيء سوى التحقّق إن كانت موجودة. هكذا نُمضي الوقت في مراقبة أحدنا للآخر.

أوّل مرّة رأيتها، كانت ترتفق إطار النافذة، مستغرقة في أفكارها، كفّها على خدّها، بهيئة الكآبة. فكّرت آنذاك: وجه أرستقراطي، دون أن أدري بالضبط ماذا يعني هذا. ربّما تذكّرتُ لوحة شاهدتها سالفًا في متحف، لوحة صغيرة تمثّل امرأة جانبيًّا... بقيت طويلاً أنظر إليها، متلافيًا الحركة كي لا أزعجها في تأمّلها. لم أكن أريد أنْ أُباغَت وأنا أراقبها، لم أكن أريد تهشيم هشاشة اللحظة وتكدير صفاء وجهها.

لمّا أحسّت بوجودي، تردّدتْ لحظة. آنذاك ارتكبتُ خطأ: لم أبدأها التحيّة، خجلاً أو لأنّني قد أبقيت دائمًا على مسافة مع جيراني، خصوصًا جيران الطابق الثالث. لكن كان أيضًا شيء آخر: كانت جميلة لدرجة أنّني أحسست بأنّني لا أستحقّ السكن بجانبها، لست جديرًا بأن تبادلني التحيّة أو تتكرّم عليّ بنظرة. لذلك أشحت بعينيّ لمّا أحسّت بوجودي، حركةٌ فسّرتْها باعتبارها كبرياء، عداوة، قلّة أدب لا تُغتفر... أخيرًا لأنّني باغتُّها وهي مستغرقة في أفكارها، أحسست كأنّني تسلّلت إلى حميميّتها، إلى أسرارها، إلى أعمق أحلامها، مثل الشيخين المتلصّصين على سوسن وهي تغتسل.

لم أكن متلصّصًا فحسب، وإن كان بالرّغم عنّي، بل فوق ذلك لم أتدارك الخطأ، ولم أصلح سلوكي بأن أحيّيها. كانت هزّة من الرأس مع ذلك تكفي.

آنذاك أغلقتْ نافذتها بكلّ لطف.

بعد ذلك، إذا ما حصل أن كنت في نافذتي، أحسّ بحرج كبير: لو بقيت، فلن أستطيع تجنّب النظر إليها؛ وإذا انسحبت، سيبدو أنّني أتهرّب منها وقد يجرحها ذلك. لا تكاد ستّة أمتار تفصل بيننا وذلك يشكّل إزعاجًا بالنسبة لي ولها على السواء؛ فكأنّنا نعيش تحت السقف نفسه. التظاهر بالنظر نحو موضع آخر، لكن ماذا؟ الفناء، السماء؟ ستقول إنّها حركات بهلوان، وحبّ الظهور...

كان يمكن لأحدنا أن ينسحب وتبقى الأمور عند هذا الحدّ. لكنّها ذات يوم ألقت نظرة في الغرفة حيث كنتُ، وركّزت انتباهها على مقعد صغير فيها. رأيت آنذاك وجهها يرتسم عليه غضبٌ مباغت فأغلقت النافذة بعنف. أَعلنتِ الحرب، بطريقة أحاديّة، دون كلمة، لا شيء إلّا بطريقتها العدائيّة في الانزواء في بيتها.

منذئذ، حاولتُ عبثًا تفسير الكراهية التي تقصدني بها. لم أكن أفهم لماذا جعلها مرأى المقعد في ذروة الغضب.

حتى اليوم الذي تذكّرتُ فيه حكاية الصيني، شخصيّة يقينًا بالغة الغموض.

في الوكالة العقاريّة، أجّروا لي الاستديو دون عقد لأنّ ذاك الذي كان يشغله قبلي لم يفسخ عقده. لو عاد يومًا، فلا بدّ لي أن أخلي له المكان. السمسار، ذو النظرة الماكرة والبسمة المتملّقة، لم يكن واضحًا حول هذه النقطة. كلّ هذا كان مشوّشًا، على حدود المشروعيّة، كنت أشعر كأنّني مغتصِب وتهديد بالطرد يحوم حولي.

لم أكن أرغب في عودة المستأجر السابق، على أيّ حال ليس قبل الحصول على منحة للولايات المتّحدة التمستها من مؤسّسة فلبرايت.

لكن في أعماقي، كان أمل غائم يرغب في أن لا يعود، لأسباب مختلفة، أحدها من مستوى جماليّ: حكاية الصيني.

خلّف سابقي، حين رحل، بعض أواني المطبخ، وراديو قديمًا، ومكنسة، وفي خزانة، جرائد قديمة وكذا مستنسخات لمقالات عن النظريّة السرديّة والشعريّة. وجدت فيها أيضًا **رحلة ابن بطوطة في** مجلّدين (بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩)، متشبّعة برائحة قويّة من التبغ. لا شكّ أنّ المستأجر السابق كان مدخّنًا مدمنًا لأنّ الاستديو كلّه يعبق بروائح التبغ.

بين المستنسخات، عثرت على مستلّ لمقالة إسماعيل كملو عنوانها «عن حكاية من **ألف ليلة وليلة** لم يسبق نشرها». تتضمّن ملحوظات بقلم سابقي الذي يعرف شخصيًّا المؤلِّف أو هو ذو علاقة معيّنة به، وإلّا كيف استطاع الحصول على مقالته؟ عمومًا المستلّ يكون هديّة من المؤلّف، لكن، للغرابة، لم يكن هذا يحمل إهداء.

كنت مقتنعًا بأنّ مدوِّن الملحوظات يبغض إسماعيل كملو أو يحسده، لأنّه قد أصحب النصّ بكمّ من الملحوظات في الهامش كأنّه ينوي دفنه. وفعلاً، كان المقال لا يكاد يُقرأ، إذ كلّ فقرة مشدّد عليها ومغطّاة بألوان مستشعّة مختلفة. القراءة التي أنجزها هي من تلك التي لا يقوم بها إلّا عدوّ، غاضبة، مرتابة، متوحّشة. كان يقرأ وهو يكتب، الشيء الذي لم أكن أفعله أنا؛ كان من المستحيل عندي قراءة كتاب به ملحوظات في الحواشي أو تكون زوايا صفحاته مطويّة، وكتاب مستعمل يبدو لي دنِسًا. لكن لسبب غامض، في الواقع لأجل معرفة أفضل بجارتي، قرأت المقالة والملحوظات المخطوطة.

في واحدة منها، تساءل كاتبها لماذا لم يذكر إسماعيل كملو في

مقالته اسم صاحب القصيدة التي مطلعها **إنْ أحببتَ امرأةً**. «شاعر مجهول؟ أو يطرح كملو أحجية على القارئ؟... هذا الهوس العربي بالاستشهاد بالشعر... لقد دخل العرب إلى الحداثة منذ أن نفوا الشعر عن كتاباتهم». وفي ملحوظة أخرى: «ما يرويه هذا الشاعر القديم عجيبٌ حقًّا، هُراء ساقط».

«غلط»، يخطّ بعنف من جهة أخرى على هامش الفقرة حيث إسماعيل كملو يرى فيها أنّ أرض الظلمات مذكورة فحسب في «نور الدين والحصان»، حكاية يؤكّد أنّه اكتشفها في مخطوط مدسوس في النسخة الإنجليزيّة من **ليالي** رتشارد بيرتون. ويكاد كاتب الملحوظة يسخط: «ألا يتحدّث ماركو پولو عن وادي الظلام؟ ألا يخصّص ابن بطّوطة صفحتين لأرض الظلمة؟ ألا يشير إلى موقعها؟ "الدخول إليها من بلغار، وبينهما أربعون يومًا". ألا يفسّر أنّ التجّار، إذا بلغوا تخوم هذا البلد، "ترك كلّ واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك، وعادوا إلى منزلهم المعتاد فإذا كان من الغد، عادوا لتفقّد متاعهم، فيجدون بإزائه من السمّور والسنجاب والقاقم [...] ولا يعلم الذين يتوجّهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجنّ هو أم من الإنس، ولا يرون أحدًا"».

تخلّى ابن بطّوطة عن مشروع الدخول إلى تلك الأرض لقلّة الجدوى، كما قال. «لكن ما أدراه؟ الحقيقة أنّه لم يكن يسافر إلّا من أجل لذّة أن يروي بعد ذلك ما شاهده. ولمّا امتنع عن أرض الظّلمة، حرم نفسه من رواية جميلة». واستخلص مدوّن الملحوظة: «بهذه الإضاءة الجديدة، ينبغي إعادة تفسير الحكاية التي نشرها كملو في Studia Arabica. لا بدّ من استئناف كلّ شيء من نقطة الصفر، أو على الأقلّ تكملة التحليل، لأنّنا لا نعلم تقريبًا موقع أرض الظلمة (الشمال

المتجمّد) فحسب، بل لدينا فضلاً عن ذلك إشارات عن ساكنتها، الشبحيّة في الحقيقة».

من هذه المؤشّرات القليلة ومن المظهر المتواضع للاستديو، استنتجت أنّه كان طالبًا ومهتمًّا على الخصوص بابن بطّوطة. وبعد الاطّلاع على ملحوظاته، تبيّن لي أنّه يشتغل على اختبار الغريب في رحلة الرحّالة العظيم في القرن الرابع عشر للميلاد. وقد دوّن في الحواشي ملاحظات ومواضيع للتفكير: «الآخَريّة، الحدود، الطرَف»، «ابن بطّوطة عند آكلي لحوم البشر» إلخ.

كان يبدو مفتونًا بصورة الصين في **رحلة ابن بطوطة**. يتبيّن ذلك من الفقرات المشدّد عليها بخطّ، ومن الملحوظات المتراكمة على حواشي الصفحات المخصّصة لذلك البلد. كان يحاول أن يفهم لماذا كان هذا الرحّالة، الشديد الإعجاب بمنجزات الصينيّين التقنيّة، يحسّ بالضيق بينهم. كان حائرًا: «هل التفسير الذي يقدّمه، أي نفوره من ديانتهم، تفسير كافٍ؟ ثم ماذا كان يعرف عن تلك الديانة؟ لماذا صمته المطلق عن قواعدها، وطقوسها، ومؤسّساتها؟ وهذا مدهشٌ، لا سيّما أنّه في وصفه للقسطنطينيّة لم يُظهر أيّ إنكار أمام مظاهر الحياة الدينيّة التي كان يعاينها. بل حاول، عبثًا، أن يزور داخل كنيسة آيا صوفيا؛ منعوه من ذلك لأنّه، كما قيل له، كان لا بدّ عند الدخول من السجود أمام الصليب الأعظم، وهذا ما لا يمكن أن يفعله بأيّ حال». وفي موضع آخر، تساءل كاتب الملحوظات إن كان ابن بطّوطة، الذي كان حبّه للاطّلاع لا يرتوي، قد زار معابد صينيّة. «لكن سواء فعل ذلك أم لم يفعل، فالنتيجة واحدة: لا يمكنه الحديث عنها».

ومن الغريب أنّ الطالب لم يكد يسجّل ملحوظات في الفصول

التي خصّصها ابن بطّوطة للبلدان العربيّة. إحدى هذه الملحوظات بدت لي مجّانيّة ودون أساس: «العالم العربيّ، ينبغي الاعتراف بذلك، هو القسم الأقلّ أهمّيّة في كتابه. وانطباعي أنّه لم يكن يحسّ بالارتياح إلّا حين يتوغّل في بلاد لا يعرف لغتها. لا مبالاة، استخفاف؟ العرب، وهذا معروف جدًّا، هم أبطال التحقير وتبخيس الذات...».

لكنّ أكثر ما أثار اهتمامي في الأشياء التي خلّفها في الاستديو، هو المقعد الصغير الذي أثار مرآه غضب الجارة. قد يكون من عادة طالب الدكتوراه أن يصعد عليه لتأمّل السماء، إنْ لم يكن ذلك للقيام بتمارين خطرة تستهدف إبهار آدا.

لم أكن مستاء من العثور عليه، غير أنّي حظرت على نفسي استعماله كي لا أؤجّج غضب جارتي الجنونيّ. بل زويته في المطبخ للتخفيف من حنقها، لكنّ اختفاءه عن مجال رؤيتها لم يفعل سوى مضاعفة جنونها.

ماذا كانت طبيعة علاقاتها بسابقي؟ أكانت تتصرّف معه كما تتصرّف معي؟ أشكّ في ذلك... الأرجح أنّ الوفاق كان عفويًّا، فوريًّا. لم يرتكب، هو، خطأ تجاهلها. لمّا التقت العين بالعين، حيّاها بهزّة من رأسه ثم انسحب. بعد ذلك، استمرّ على السلوك نفسه، ولوقت طويل أبديا التحفّظ ولم يتبادلا كلمة.

أكان منجذبًا إليها؟ بالتأكيد، لكنّه لم يكن واعيًا بذلك بتاتًا. كان يجد متعة في أن يراها، وأن يحيّيها. ظهورها كان في كلّ مرّة بالنسبة له نشوة.

ثم ذات يوم، سمع جرس بابه يُدقّ. فتح: كانت هي! تحمل إليه مفتاحًا، مفتاح صندوق الرسائل الذي نسي سحبه. مدّته له، دون كلمة. بلغ من دهشته لزيارتها أن انحبس لسانه فلم يشكرها. فضلاً عن أنّها كانت قد أسرعت بالذهاب.

كان لهذه الزيارة أثر كبير عليه. هل أحبّها منذ تلك اللحظة؟ قامت بخطوة نحوه، وكأنّها، بهذا الفعل، قد أذنت له بأن يعشقها.

في الغد، رآها ثانية، انطلق لسانه، فعبّر لها عن شكره. تحدّثا آنذاك عن النسيان والهفوات عمومًا. من الواضح أنّها كانت مستثارة، ويوم أو يومان بعد ذلك، طرحت عليه سؤالاً.

«فعلتَ ذلك عمدًا، أليس كذلك، أن تترك المفتاح على الصندوق»؟

كانت تريد التحقّق من الأمر، أجاب بلا، فبدا عليها آنذاك الاطمئنان، لكن ربّما أيضًا بعض الخيبة. فيما بعد، ادّعى العكس. لإرضائها، لمداعبتها؟ روى لها أنّه، وهو يدخل ذات يوم إلى العمارة، أبصرها عند البقّال، تفتّقت الحيلة في ذهنه: كان متيقّنًا تقريبًا من أنّها لمّا تدخل بدورها، سترى المفتاح، وستدفعها روح التضامن بين الجيران إلى أن تحمله إليه. لم تنفر آدا من الحكاية. هل اخترعها؟ في النهاية، لم يعد يعرف حقيقة الأمر، وفي الواقع، الأمران سيّان.

مهما يكن، فقد كان مضطرًّا إلى التسليم بأنّ الشاعر القديم كان صائب النظر. قال لنفسه، متذكّرًا دراسة كملو: «القصيدة صائبة: جاءت تطرق بابي. للشعر جانبه الجيّد وفائدته، غير الهزيلة، يمكن أن يشكّل دليلاً ثمينًا في الحياة». لم يدوّن هذا على مستلّ إسماعيل كملو حيث لم

يتبقّ مكان، بل على حاشية مستنسخ مقالة عن الشعر الغنائي.

وإذا بعهد من السعادة ينفتح أمامهما. كلّ مساء، كان يجلس على المقعد ويتحدّث معها. كانت مهتمّة بأطروحته وتجد الحكايات التي يشتغل عليها مسلّية. يمضيان لحظات جميلة معًا، كلّ واحد في نافذته. عاطفة تولّدت، حبٌّ دون شكّ. كانا يعيان أنّهما يبتكران حكاية، يكتبانها، هما الاثنان، لكن هل كانا يعلمان أنهما، على طريقتهما، يُعيدان كتابة حكاية الصيني؟

كان يقرأ عليها مقاطع من ابن بطوطة يتوسّعان في تفسيرها، هو جالس، وهي متّكئة على إطار نافذتها كما في مشرب. من وقت لآخر، يشربان الشاي، ويأكلان الكاكويت وقطع الشكولاط. يضحكان كثيرًا، مثلاً حين يقول ابن بطّوطة، الذي ما أكثر ما سافر بحرًا وتعرّض لعواصف عديدة، إنّه لا يعرف العوم. أو حين يصدمه كون نساء جزر الملديف يمشين في الأسواق وغيرها عاريات النهود. فلمّا وُلّي القضاء في تلك الجزر، جهد في وضع حدّ لتلك العادة، فلم يستطع ذلك. لكنّه يضيف: «فكنت لا تدخل إليّ منهنّ امرأة في خصومة إلّا مستترة الجسد» المنافق! **استري هذا النهد الذي ليس لي أن أراه**... واستفظعت آدا لمّا علمت أنّ آكلي لحوم البشر في إفريقيا «يقولون إنّ أطيب ما في لحوم الآدميّات الكفّ والثدي».

إذا كان المطر، تتوقّف جلسة القراءة أو تتأجّل.

لكن على الأقلّ، كان الطالب محتميًا في بيته. فيما الصيني، سواء كان المطر أو الريح، عليه أن يظلّ خارجًا، في الشارع المظلم. فالمرأة التي كان يحبّها قرّرت ألّا تمنحه حبّها إن لم يقضِ الليل، مدّة ثلاث سنوات، تحت نافذتها. كان يحضر في المساء، ويجلس على

مقعده ولا يذهب إلّا عند الفجر. أثناء سهره، كانت الجميلة تنام وراء نافذتها المغلقة.

كان يوم عاصفة لما دعا الطالب آدا لتحضر عنده من أجل جلسة القراءة. رفضت. أكانت في ذهنها حكاية الصيني؟ أبدًا. ولتبرير رفضها، استشهدت بالشاعرة الأندلسيّة دنيا:

كلّ الذكورسواءٌ فاقوا السباع شرورا لا تأمل امرأة منهم خيرًا ولا سرورا

لا آلو أحلف بالله دائمًا أبدًا لا كان لي فظيعُ قُربهم عشيرا

حزن الطالب كثيرًا، لكنّ ذلك لم يثبّطه. يلزمه كثير من الوقت، وكثير من الخيال والمثابرة لاستمالتها والظفر بقلبها. لا بدّ له من الصراع ضدّ آدا ودنيا على السواء. كان يتساءل أحيانًا من أين استمدّت تلك الشاعرة معرفتها عن «الذكور». حبّها للوزير اليزيدي، وهو نفسه شاعر حين يروق له ذلك، قد اشتهر في مجموع الأندلس، لكن لا أحد يعرف شيئًا دقيقًا عن علاقتهما. وليس معروفًا كذلك إن كانت قد نظمت البيتين اللذين كثر الاستشهاد بهما، قبل أو بعد لقائهما الغراميّ. أمّا تحديد إن كانت صادقة وهي تكتبهما... فقد ورد في القرآن أنّ الشعراء يقولون ما لا يفعلون.

من الواضح أنّ آدا تهدف من خلال هذه القصيدة إلى صدّ جارها، لكن يمكن القول أيضًا إنّها تحاول تأجيج عشقه. أليس الشعر ورقة رابحة في مناورات الإغراء؟ ذلك ما يلمّح إليه ابن حزم في **طوق الحمامة**. لكن للأسف في الخبر الموضّح لهذه الفكرة في الكتاب لم يكن لإنشاد قصيدة أيّ صدى.

آدا، وهي تضع الطالب موضع الاختبار، يبدو أنّها تقول له:

حاول أن تبرهن لي على النقيض. ودون أن يكون واعيًا تمامًا بالتحدّي، واجهه على طريقته بأن قرأ لها حكايات. بعد ابن بطوطة، انتقل إلى **ألف ليلة وليلة**.

أكانت آدا على علم بخاتمة حكاية الصيني؟ عند انقضاء السنة الثالثة، هذه الشخصيّة الطيّعة إلى هذا القدر ـ وهو ختام غير متوقّع ـ تناولت مقعدها وذهبت دون نظرة إلى الوراء، نهائيًّا.

يبدو فعله منطويًا على لوم خطير، كأنّه يتّهم الاختبار المفروض عليه وانعدام الثقة الذي يقتضيه. أكيد أنّ حساب المرأة المحبوبة قد أحنقه: على ماذا يدلّ البقاء على وفائه طوال ثلاث سنوات، بالنظر إلى ما سيتلوه؟ بعد أن برهنت له على خطأها في عدم الثقة به، اختفى.

يمكن كذلك الظنّ بأنّ ما كان يهمّه، في الحقيقة، هو الانتظار. بمرّ الزمن، استهوته اللعبة، ولمّا حقّق أمنية المرأة، لم يكن يؤدّي واجبًا لها بل لذاته. كان، فضلاً عن ذلك، يحقّق أمام نفسه نوعًا من الإنجاز، فعل بطوليّ بزهده في «المكافأة».

لكن لماذا لم يرفض الصفقة منذ البداية؟ كلّما فكّرتُ في ذلك، بدا لي شخصيّةً عصيّة على التحليل، كائنَ ضغينة قد هيّأ ببرودة انتقامه؛ شيئًا فشيئًا، نشأت في ذهنه فكرة أن يهجر كلّ شيء...

ممكنٌ كذلك أن يكون أراد إقامة الدليل على حبّه؛ ذهب، لا لأنّ حبّه انتهى، بل لأنّه يحبّ. الذهاب بالنسبة إليه كان تحرّرًا. لكنّه بتحرّره، ألم يكن يقيّد الصينيّة؟ يذهب، نراه يذهب، يبتعد، مقعده في يده، صورة ختاميّة، سينمائيّة للغاية. ولأنّ الحكاية متركّزة عليه، فالكلمة الأخيرة له.

الحكاية رهيبة الصمت حول التتمّة. لا فكرة عن المرأة التي من نافذتها، ذات صباح، عند الصحو من نوم ثقيل، شعثاء وعاجزة، تراه يبتعد بخطوات متّزنة.

أين قرأت هذه الحكاية؟ ليس عند ابن بطوطة، غير القادر على سرد حكاية بمثل هذه الرهافة والنفاذ. أمّا **الليالي**... فمثل هذه الخاتمة غير متصوَّرة فيها. حكاية الصيني غريبة عن روحها، ولو أنّ اختبار السنوات الثلاث يتطابق مع عدد ليالي شهرزاد... نجد بالطبع اختبارات في عدّة حكايات، أحيانًا أشدّ مشقّة، لكن لن يخطر على بال الأبطال أن يلوموا محبوبتهم على نزوة، ولو قاسية، ولن ينصرفوا، كما فعل الصيني، المتّشح في التخلّي كما في رداء ملكيّ...

منذ ذاك، لم يعد لآدا من تحادثه. لم أكن في الحساب، فهي تفضّل الموت على مخاطبتي. وجودي بالنسبة لها لا يُطاق، كانت تتمنّى أن أختفي ويعود الآخر. دجّال، هذا هو حكمها عليّ. كانت، مع الزمن، قد استسلمت لذهابه وتجد لذّة في وحدتها. كانت النافذة الموضع المفضّل لتأمّلها، وها أنذا أهبط وأقلب كلّ خططها عن الهدوء والصفاء، حنينها العذب.

كيف أغيثها؟ كانت تتألّم في صمت وكنت عاجزًا عن فعل أيّ شيء من أجلها. أينبغي أن أروي لها حكاية الصيني؟ ستقول لي آنذاك لماذا ذهب طالب الدكتوراه. كان قد قرأ كمًّا من الحكايات، لكن ليس حكاية الصيني. لو فعل، لكان مصيرهما قد اتّخذ مجرى آخر. لكن هو نفسه كان يجهل تلك الحكاية.

كنت أنتظر دائمًا ردّ مؤسّسة فلبرايت. ظلّ صندوق الرسائل فارغًا فراغ اليأس وبدأت أفزع. وضعيّتي مستأجرًا لم تكن واضحة، وأنا أجازف مجازفة أكيدة بالبقاء في الاستديو. أدركت ذلك في اليوم الذي قصدت فيه الوكالة لأستعلم، فوجدتها مقفلة. وكذلك الأيّام التالية. قلقت، فسألت البقّال: أخبرني أنّ السّمسار، ذات صباح، خلافًا لعادته، نزل باكرًا جدًّا إلى الوكالة، ثم غادرها على عجل حاملاً ملفّات.

«يحتلّ بشكل غير مشروع المحلّ حيث يزاول مهنته. نصّاب».

آن الأوان لي لمغادرة المكان، لكن لمن أترك مفتاح الاستديو؟ لآدا؟ هل ستقبل؟ يقينًا لا. ماذا تفعل به ولمن تسلّمه هي بدورها؟ لا بدّ لي بكلّ استعجال أن أتحادث معها، كلانا في الوضع نفسه ومعًا، نحن الاثنين، يمكننا اتّخاذ القرار الأفضل.

لكنّها لم تظهر في نافذتها. قضيت النهار والليل في ترصّدها، وأخيرًا، لمّا أرهقني الانتظار، ارتميت على فراشي، كان جسدي يرجف من تلك البرودة المتسترّة التي تصاحب الحمّى.

كم دام نومي المضطرب؟ كنت أفكّر في آدا، وأفكّر أيضًا في الصيني. هل سيعود؟ بما أنّه لم يأخذ معه مقعده، فلديه عذر جيّد. لكن لا ينبغي أن يفعل ذلك، من أجل روعة الحكاية. عودته ستفسدها، ستصير متعذّرة الرواية.

في اللحظة ذاتها، سمعتُ صوتًا على النافذة، مثل صدمة حصاة أو حبّة كاكاويت. بعد قليل، دُقّ الباب. نهضت بمشقّة كبيرة لأفتح الباب. لا أحد. ربّما قد أبطأت في الاستيقاظ، فانصرف الزائر، معتقدًا أنّني غير موجود في البيت.

أكان السمسار؟ ليس له عليّ أجرة كراء، فلا سبب لأن يأتي لإزعاجي، إلّا إذا كان سيعلن لي عن خبر سيّئ. أكان سابقي قد عاد من رحلته الطويلة ويرغب في العودة إلى مسكنه؟ وإذا كان هو، لماذا لم يستعمل مفتاحه؟

بعد قليل، سمعتُ الجارة تغلق نافذتها. لماذا تفعل ذلك، بينما تعرف جيّدًا أنّني لم أكن أراقبها؟ ثم أعادت فتحها، لتغلقها بعد ذلك بفرقعة. استأنفت ذلك مرّة ومرّة.

لا بدّ أنّني عاودتُ النوم، لأنّني استيقظت لمّا سمعتُ الباب يُدقّ. دائمًا لا أحد، لكنّ خطوات كانت تبتعد وباب ينغلق بهدوء في مكان ما. ما إن عدتُ إلى الفراش حتى اصطفَقَت النافذةُ من جديد.

لمّا استطعتُ أخيرًا النهوض، كنت أحسّ بنفسي دائمًا ضعيفًا، لكنّ الحمّى اختفت. جررت نفسي حتى النافذة: آدا لم تكن في بيتها.

مرّت الأيّام، لم تعد تظهر. الصمت ثقيل، كأنّ العمارة خلت من ساكنيها. فكّرت في نومي المحموم. ربّما كانت قد جاءت تستعلم عن أحوالي، تسأل عن صحّتي، أو تودّعني. إمكانيّة بعيدة الاحتمال عند التأمّل. لماذا ستتحنّن عليّ في اللحظة الأخيرة؟

على صندوق الرسائل، ما عاد اسمها موجودًا.

أحسست بما يشبه الهاجس: لن أراها بعدُ، أبدًا. عرفت حينذاك مقدار تعلّقي بها. راحت، عقابًا لي لأنّني ذات يوم أغفلت أن أحيّيها. كان عليّ أن أتوسّل إليها لتصفح عنّي، لم أحاول شيئًا، لم أعرف كيف أجد الكلمات المناسبة لتهدئتها، حكاية جميلة لأهزم غضبها. ما كان أبعدني عن الظنّ بأنّ الأمور ستسير في هذا المنحى، وأنّ الوضع

سينقلب، وأنّي سأعيش الحكاية معكوسة: بقيتُ، فيما الصيني قد انصرف.

اليوم الذي أخطروني فيه، بعد ذلك بكثير، بقبول طلبي منحة إلى الولايات المتّحدة، كان يوم حزن عظيم. كان عليّ التخلّي عن الاستديو، ونافذتي على الفناء ومقعدي.

غادرت العمارة باكرًا ذات صباح لأركب قطار الساعة الخامسة الذي سيحملني إلى المطار. الشارع يغوص في ضباب كثيف. ما إن مشيت بضع خطوات حتى سمعت نافذة تُفتح في طابق ثالث. رفعت عينيّ، فلمحت صورة أنثويّة. آدا؟ لم أستطع تحديد الاتّجاه. أكانت لا تزال في العمارة، لكن في شقّة أخرى؟ هل انتقلت إلى العمارة المجاورة، ممّا يفسّر اختفاء اسمها من صندوق الرسائل؟ لمّا صارت لها الآن نافذة تطلّ على الشارع، فقد تخلّصت أخيرًا من وجودي.

وسط الضباب، بدا لي أنّها تنحني قليلاً خارج النافذة وتلوّح في لطف بيدها. إشارة في اتّجاهي تمامًا لحظة كنت أغادر... هكذا أكون قد رأيتها، المرّة الأخيرة كالأولى، في إطار نافذة.

لوّحتْ من جديد بيدها، بحدّة. أكانت تذكّرني أن لا أتباطأ فيفوتني القطار؟ متشنّج الحلق، مجرجرًا حقيبتي، أخذت من جديد طريق المحطّة.

رغبة تافهة في البقاء

ذلك الصباح، التقت نظراتي لأوّل مرّة بنظرات عايدة. لأوّل مرّة؟ على أيّ حال، لم أكن أعلم عندئذ أنّ هذا اسمها.

جالسًا إلى مكتبي قرب النافذة، كنت أنوي تحرير فقرة أو فقرتين من أطروحتي، أو على الأقلّ أقرأ وثائق، مدوّنًا بعض التعليقات. لكنّ المكتب كان مثقلاً بكتب، ومستنسخات، وقطع أوراق مخربشة، وأقلام حبر ورصاص إلى حدّ أنّي شعرت فورًا بإحساس من الإحباط. كان لا بدّ، وعلى وجه السرعة، من ترتيب حوائجي، وتنظيم الجذاذات بحسب الثيمات أو المواضيع، وخصوصًا القيام بفرز الأوراق، ورمي غير النافعة منها، لكن كيف لي أن أعلم أنّني لن أحتاجها ذات يوم؟ لمّا لم أستطع الحسم، تخلّيت عن الترتيب. فضلاً عن أنّها ليست المرّة الأولى التي أقرّر فيها مع نفسي، عبثًا، إقرار النظام في مكتبي وفي أفكاري.

الشارع في الأسفل يميل إلى الهدوء، شمسٌ صباحيّة وديعة تغسل واجهات العمارات. من الشارع الرئيسي الواقع غير بعيد يصدر ضجيج ملطَّف، أحيانًا تمرّ سيّارة أو درّاجة ناريّة. لم يكن الناس متعجّلين، خادمات يشترين فواكه من بائع متجوّل، وأطفال يلعبون على الرصيف.

هذه هي السعادة، هذه الحياة الآمنة التي كنت أرقبها من أعلى طابقي الثالث. . . سعادة في متناول اليد في شارع صغير حيث الزمن ينساب بطيئًا.

حدّدتُ لنفسي بمثابة هدف، فور إتمام أطروحتي، أن أنذر نفسي لمتعات بسيطة: أنظر من النافذة، أتفسّح في الشوارع، أتوقّف أمام واجهات المحلّات. أقرأ أيضًا أشياء مسلّية: قصصًا مرسومة، روايات مغامرات، الشعراء الذين أحبّهم، دون إحساس بالذنب لأنّني، منذ زمن طويل، حظرت على نفسي هذه القراءات خشية أن أسرق ساعة من أطروحتي. والحال أنّ هذه لم تكن تتقدّم ولم أكن أقرأ الكتب التي تجذبني، وضعٌ ممزوج بطعم تعاسة غير مستحقَّة.

كنت أتوق أحيانًا إلى أن أحقّق بلا تأخير ما كنت أرغب فيه حقًّا، لكن إذا فكّرت في وضعي المهزوز، ومستقبلي المشكوك فيه، كنت أتشبّث بعمل البحث الذي سيُتيح لي ذات يوم أن أسعى إلى منصب مدرّس في الجامعة، رغم أنّ حظوظي للالتحاق بها تكاد تكون معدومة. ضجرت من تدريس الفرنسيّة في مدرسة خاصّة حقيرة لصبيان قذرين لن يقرأوا أبدًا كتابًا. سينتهي المدير بتسريحي، لم يكن ينتظر سوى نهاية السنة، لأنّه لا يستطيع الآن تعويضي بطريقة ملائمة. كان يأخذ عليّ، من بين أمور أخرى، تضخيم نقط تلامذتي. أنا أعرف ما كان يرغب فيه دون أن يجرؤ على الإفصاح عنه: أن أمنح في بداية السنة نقاطًا ضعيفة، وأرفعها بعد ذلك تدريجيًّا وأقدّم بذلك للآباء فرصة قياس التقدّم الذي حقّقه أولادهم. لكن كان يُخيّل لي أيضًا أنّني أقرأ في عينيه اتّهامي بعدم تصحيح الفروض، ويرى أنّ نقطًا سخيّة كانت بالنسبة لي وسيلة للخروج سالمًا بأزهد ثمن.

في الشارع، تلك التي سأعرفها فيما بعد باسم عايدة كانت تتقدّم ببطء، وقصاصة ورق في يدها، تنظر إلى أرقام العمارات، باحثة فيما يبدو عن عنوان. عنواني؟ سارت حتى نهاية الشارع، ثم رجعت. أسمع كعبي حذائها يطقّان على الرصيف. لمّا وصلت أسفل نافذتي، رفعت رأسها. غريزيًّا تراجعت، مرتاعًا من ملاقاة نظرتها. تردّدتْ لحظة ثم ابتعدت بخطوات صغيرة.

لماذا كانت منّي حركة التراجع العبثيّة هذه؟ وفي الوقت ذاته، لماذا فكّرت أنّني، عاجلاً أو آجلاً، سأراها ثانية؟

موضوع أطروحتي كان حول «مؤلّفي **ألف ليلة وليلة**». سجّلته دون أن أتبيّن المصاعب التي سأواجهها. اقترحه عليّ الأستاذ ك. ذات يوم، في مصادفة عابرة. بعد هذا، صارت عنده قناعة حميميّة أنّني أنا الذي عثرت على الموضوع؛ زد على أنّني كلّما قابلته، كان لا بدّ لي من تذكيره بعنوانه.

كان يسأل بنبرة من نفاد الصبر في صوته: «كيف ستتصرّف»؟

كان لديّ إحساس بأنّه حانق عليّ لإزعاجه بهذا المشكل، وحتى مجرّد وجودي يضايقه.

«لماذا بحقّ الشيطان اخترتَ هذا الموضوع»؟

كان يستمع بأذن لاهية لملاحظاتي عن اللغات التي دُوّن بها مجموع **الليالي**، عن الجمّاعين، والمترجمين، والمقتبسين، وكذا عن المخطوطات والطبعات المتوافرة.

«كلّ هذا معروف جدًّا، يلزم شيء آخر».

كان لي أمل كبير في الندوة التي ستنعقد بعد بضعة أسابيع والتي تتناول بالضبط «مفهوم المؤلِّف، الأمس واليوم». قرّر الأستاذ عبد السلام لموجي تنظيمها في فندق كبير. ولمّا اقترحت عليه المشاركة فيها بعرض عن الخطوط الكبرى لأطروحتي قيد الإنجاز، رفض، بدعوى واهية هي أنّ البرنامج قد اكتمل سلفًا. وواصل:

«مهما يكن من أمر، فمسألة مؤلّفي **الليالي** عقيمة ولا تفضي إلّا إلى طريق مسدود».

لا أملك، في نظره، الصفات المطلوبة للتصدّي لها، كان يريد أسماءً، أساتذة جامعيّين معترفًا بهم. وللسبب نفسه، رفض مشاركة إسماعيل كملو، زميل قديم في الدراسة كان يريد القيام بعرض حول تمثيل شهرزاد في الرسم الاستشراقي.

والغريب أنّ لموجي كان يحرص على أن يسعى جميع الذين يرغبون في حضور أعمال الندوة إلى تسجيل أنفسهم ويؤدّون رسمًا، وإلّا، كما قال، «لا جمهور».

ثانية، رأيت عايدة، الفاتنة المجهولة، بضعة أيّام بعد ذلك. لم يكن عندي ما أعمله، فدخلت ذات مساء إلى رواق فنّي حيث يعرض الرسّام مومن باري. طفت به مرّتين، ملتزمًا بلحظة توقّف أمام كلّ لوحة. أرى، لا أرى. . . بقع، لطخات من الألوان، جلطات، لا شيء يشدّك. لو كان عليّ أن أقول عنها شيئًا، فماذا قد أقول؟ ولمن؟ الوحيد الكفيل بالاهتمام بذلك هو الرسّام نفسه، وحتى هو. . .

لم أعزم مع ذلك على الانصراف. بين الجمهور، كنت أتعرّف

على وجوه مألوفة قليلاً أو كثيرًا، طفيليّو الثقافة، الحاضرون في كلّ تدشينات المعارض الفنّيّة، والحفلات الموسيقيّة، والمحاضرات، والندوات، والموائد المستديرة، والأيّام الدراسيّة. أشباهي... حين يدخلون، يتظاهرون بالنظر إلى اللوحات، ولأنّهم يعرفون أنّ الآخرين يلحظونهم، يؤدّون تمثيليّة المبالغة في إبداء اهتمامهم. بعد تأدية هذا الواجب، يبحثون عن معارفهم. المعرض بالنسبة لهم حدث اجتماعي، مكان للقاءات. كانوا يشكّلون حلقات، ويتبادلون الإشارات فيما بينهم، ويردّون على المكالمات المتلقّاة في هواتفهم المحمولة. لا يعبأون إطلاقًا بالرسم؛ أنا نفسي أعترف أنّني لم أدخل إلى الرواق إلّا لأنّني، وقد مررت مصادفة، أبصرت جمهورًا في الداخل...

كان الرسّام، الذي أعرفه بالنظر، يفسّر أعماله لجماعة تحلّقوا حوله ينصتون إليه في إعجاب. اقتربت: لا، إنّهم يتحدّثون عن شيء آخر تمامًا، عن معارف ذوي أسماء نادرة: سيدوان، بتول، تيفّا، بريس، آنبُوَا. لم أجرؤ على التقحّم في الحديث، لكنّي كنت أنوي، عند سنوح الفرصة، أن أتحدّث إلى باري، وأبلغه ارتساماتي عن رسمه.

بين الحضور، لاحظت الأستاذ عبد السلام لموجي الذي تظاهر بأنّه لم يتعرّف عليّ. عاينت أيضًا عمر لوبارو، زميل قديم في الفصل لا يمكنه أن يتظاهر بأنّه لم يرني... بدأ اسمه يُعرف بعد أن أصدر ديوانًا شعريًّا نال نجاحًا، **رغبة تافهة في البقاء**. كان آنذاك في تلك المرحلة الوسيطة حيث يشرع مؤلِّفٌ في الخروج من الغُفليّة؛ ديوانٌ ثان وسيحوز الإقرار. عديدون أولئك الذين، إذا ما صادفوه، يهتفون: «الشاعر!»، «كيف حال شاعرنا»؟

إلى جانبه، عايدة. وأنا أراها عن قرب، تذكّرتُ أنّي قد لمحتها في افتتاحات معارض فنّيّة؛ لا بدّ أنّها تهتمّ بالفنّ، وتنظّم تظاهرات ثقافيّة. في كلّ مرّة، كنت أحاول تحيّتها، جذب انتباهها، لكنّها أبدًا لم تتنازل بنظرة إليّ. الفرصة الآن مواتية للتعارف، سيقدّمني لها لوبارو، زِدْ على ذلك أنّه كان يشير نحوي. تقدّمت وصافحته.

قال: «عايدة».

مددت يدي للمرأة. نظرتُ إليها، ولم تتحرّك.

ما كان حقًّا مثيرًا للإعجاب، هو رباطة جأشها. لا علامة عندها لاضطراب أو تردّد. كي تتجنّبني، لم تلتفت، مثلاً، لتنظر إلى لوحة. كانت تقف أمامي، منتصبة وأبيّة، مغضّنة قليلاً عينيها تتفحّصني وكأنّني من فصيلة من القرود.

لوبارو، وقد بدا عليه الإحراج، لم يكن يعرف كيف يهبّ لمساعدتي وإنقاذ الموقف. لم يكن يتوقّع أن أتلقّى مثل هذه الإهانة، ذلك فاق توقّعاته. غير أنّه في مكان ما من ذاته، لا بدّ راقه هذا الإذلال، وأنا أرتاب في كونه متواطئًا مع المرأة. أيّ تعليقات تبادلاها بشأني، وأنا أشاهد اللوحات؟

ولمّا كان واقفًا بجانب مائدة المشروبات، أمسك بكأس ومدّها إليّ. إن كان يعتقد أنّه سيتخلّص بهذه المجاملة، فهو خاطئ... كان عليه دَيْن لي، دين هائل، ولمّا كان عاجزًا عن تسديده، فهو يحسّ نفسه متضايقًا ويحنق عليّ.

قال: «لم أكن أعرف أنّك تهتّم بالرسم».

في نظره، لا ينبغي (ترجيح وإلزام) أن أهتمّ بالفنّ. لم يكن

كاذبًا، لكن لماذا يقوله لي أنا؟ ليبلغني أنّي لست في مكاني، أنّني غريب عن الوسط الفنّي، وأن لا مبرّر لحضوري. بينما هو...

التفتت إليه عايدة قائلة: «ربّما ينبغي أن تكتب ورقة عن هذا المعرض».

باغته القلق، فرماني بنظرة كأنّه يستغيث بي. إشارة صغيرة منّي وسيجد الخلاص. فضّلت النظر إلى جهة أخرى فيما هو يلجلج:

«سأرى...».

ليس هناك ما يُرى.

في تلك اللحظة، تقدّم الرسّام نحو عايدة التي تلقّته بابتهاج. لم يأبه لي وسلّم على لوبارو. شاعرنا! وحتى لا يبقى مدينًا، هتف الشاعر:

«لوحاتك رائعة».

مودّة عفويّة، تبادل مجاملات بين رسّام وشاعر قد بلغا الغاية والنهاية كلاهما. أضاف لوبارو:

«لا بدّ يومًا أن نعمل كتابًا معًا».

مسعًى في إبّانه. في هذا، أعرفه جيّدًا...

عايدة سألت باري عن مبلغ تأمين اللوحات من أجل المعرض القادم في الخارج. تلك كانت بالنسبة لي لحظة التفوّه بكلمة. لمّا ستسمع تعليقي، ستطلب منّي تحرير ورقة وستكون فرصة لتوثيق الروابط... لكنّي كنت أعلم أنّها لن تطلب منّي شيئًا، إذ لا أحد رأى كتاباتي، أو بالأحرى بلى، لكن... عرضت ساعتئذ على الرسّام ما اعتقدت أنّني ميّزته في لوحاته: مشاهد من حياة ما قبل التاريخ، مغاور،

خيول، ماموث غائم، أشباح عموديّة. نظر إليّ مذهولاً:

«تعتقد أنّ تصويري بدائيّ»؟

كان يحرّف ملاحظتي، مانحًا إيّاها معنًى غريبًا عن فكرتي، عمّا قصدت قوله... بافتراض أنّني قصدت قول شيء ما. كنت بشكلٍ تقريبيّ غائمٍ قد لمحت تماثلاً بين لوحاته والرسوم الصخريّة. لم أحاول إهانته، كنتُ أرغب في أن أكون لطيفًا، متودّدًا إليه (في الحقيقة كنت أبحث عن إثارة اهتمام عايدة). وللتكفير عن نفسي، سألته إن كان قد قرأ **حرب النار**، ولمّا بدا عليه أنّه لم يفهم، أوضحت بثقل دم أنّ الأمر يتعلّق برواية روسني الأكبر. لم أنجح إلّا في مفاقمة حالتي: لم أجعل فحسب من رسّام يريد أن يكون ما بعدَ حداثيٍّ مصوِّرًا لرواية عن العصور الأولى، رواية لمراهقين بَثِيرين، بل أوقعته لا إراديًّا في فخّ بإجباره على الاعتراف بجهله.

ردّ في غضب: «أنا لا أقرأ يا سيّدي، أنا أرسم».

بدل الحديث عن الأدب، كان عليّ أن أذكر ارتباطاته برسّامين آخرين، وأحدّد موقعه في التيّارات الفنّية الراهنة. لكن فضلاً عن انعدام كفاءتي في هذا المجال، فخطابي على الأرجح لن يحظى بالتقدير: سيظنّ باري أنّني أعرّض بخضوعه لتأثير... حبست نفسي في الوقت المناسب عن ذكر راهان.

عجوز متأنّق يحمل ربطة عنق فراشيّة انبثق في الوقت المناسب وهتف:

«برافو، الأستاذ العزيز، أحبّ جدًّا رسمك، أنا مفتون بصدق التصوير، وتناغم الألوان، واتّزان الأشكال. لوحاتك تعبّر عن

الإنسانيّة، عن الروح، عن الكائن».

باري، وقد تدغدغ، همس بتشكّرات: هو ذا نمط الخطاب الذي يحبّ سماعه، هو ذا الذي كنت عاجزًا عن قوله. التعبير عن الكائن. . . لكنّ الخطاب الأجوف، الصالح لكلّ مكان، فنٌّ لا تحذقه، عكس ما يُظنّ، إلّا قلّةٌ من الناس. كنت أغبط الذين ينطقون به، فضلاً عن أنّني لم أكن أتمكّن من عرض خطاب مبتكر، أو بالأحرى بلى، لكنّه ينتسب إلى الهذيان. والدليل. . .

كان الرسّام ينظر إلى كأسي، كأنّه يبغي انتزاعها منّي. بالتأكيد، كنت غير مرغوب. يلزمني الانصراف، العودة إلى بيتي واجترار الإهانات المتوالية. حيّيت لوبارو ثم، لا إراديًّا، مددت من جديد اليد إلى عايدة. وكما من قبل، لم تتحرّك. أعتقد أنّي تبيّنت ابتسامة غائمة على شفتيها. انطلق باري بضحكة مجلجلة. ما نلت إلّا ما أستحقّ.

لماذا تتصرّف هكذا؟ لم أكن أعرفها؛ ومبدئيًّا، لا سبب عندها للحقد عليّ. ربّما بكلّ بساطة سحنتي لا تروق لها، أولّد عندها النفور، وتبلغني هي ذلك، وتعلنه أمام الجميع. أقسى ما في الأمر أنّني كنت دائمًا أربط الجمال بالطيبة، مقتنعًا أنّ وجهًا جميلاً يعكس نفسًا كريمة. والحال أنّ الجمال يمنح حقوقًا، منها حقّ أن يكون المخدوم الأوّل وأن يهين الآخرين.

لكنّ عايدة ربّما تعرفني وتعرف أشياء عنّي، فظاعات، وإلّا كيف يمكن تفسير رفضها التصدّق عليّ بمصافحة؟ ماذا علمت بشأني؟ أيّ دناءة تنسبها إليّ؟ لم أرتكب شيئًا يستحقّ اللوم، لا شيء خطير، حقارات عاديّة. حقًّا كانت لي أحيانًا أفكار شرّيرة، لكنّي أحتفظ بها، لا أكاد أعترف بها لنفسي. ربّما كانت تنعكس رغمًا عنّي على وجهي، وفي

هذه الحال تكون عايدة قد كشفتني لواضحة النهار. لا، كان لوبارو قد حرّضها ضدّي، لا بدّ كان قد حدّثها عن الدناءة، الحقيقيّة أو الخياليّة، لسلوكي، ورسم عنّي صورة سوداء.

لكن قد تكون حاقدة عليّ لأنّني في ذلك اليوم، لمّا رفعت عينيها نحو نافذتي، باغتتْ حركةَ تراجعي.

نظرتُ حولي. لم يبد على الناس أنّهم لاحظوا أيّ شيء. كانوا غير مهتمّين إلّا بأنفسهم، ولا أحد لحظ الحادث، أعتقد ذلك على الأقلّ، كنت في حاجة إلى اعتقاده. مطأطئ الرأس، مُذَلًّا ومُهانًا، قصدتُ باب الخروج. وراء ظهري، تعليقات ربّما، أو لا شيء سوى اللّامبالاة.

كان الليل، والشوارع تفرغ، ورذاذ مطر يسقط. فجأة، لمحت على يميني، رؤية عابرة، متشرِّدًا. تابعت سيري، لكنّ الوجه الذي لمحته لم يكن غريبًا عليّ. عدت على عقبيّ: كان ذلك انعكاسي على مرآة واجهة من الواجهات. دهشة: هكذا يراني الناس! حال كئيبة، أنا حقًّا موضع للّوم والاحتقار. عايدة لها كلّ الحقّ في رفض مصافحتي.

لا ينبغي لي التوقّف طويلاً أمام ذاتي، لكنّي كنت مسحورًا بصورتي وظللتُ تحت المطر، كأنّني أقيس مدى سقوطي. فجأة تلاشت الصورة ومحلّها انبثقت صورة لوبارو، باسمًا ببياض أسنانه البهيميّ. التفتُّ. كان هنا.

قال: «بشرفي، صرت نرجسيًّا. احذر أن تغرق في انعكاسك.

لنذهب بالأحرى إلى مقهى، أنا أدعوك».

لا شكّ أنّه كان ينوي مواساتي، ويطلب إليّ ألّا أبالي، أنّ عايدة لم تكن شرّيرة في الحقيقة...

«تصوّر أنّني في باريس، رأيت **رغبة تافهة** في مكتبة جيبير، بجانب كتب لبعض الكتّاب المغاربيّين. كان يحمل علامة «مستعمل» على بطاقة صفراء. أتساءل من الذي أعاد بيعه بعد أن اشتراه. لم يعجبه أو كان في حاجة إلى نقود... كدت أشتريه لكنّني فكّرت أنّ من الأفضل أن أتركه حيث كان».

صمت لحظة، وبدا عليه التفكير، ثم أضاف:

«لم يدفع لي الناشر حتى الآن سنتيمًا واحدًا، وهذا لا يمنعه من شتمي كلّما لقيني. يزعم أنه قام بصفقة خاسرة ويكاد يتّهمني بالنصب عليه. بشعٌ أن تكون تحت رحمته، من الأرجح أنّه لن يرغب بعد في نشر شيء لي. لكن اطمئنّ، ما إن يدفع لي حقوقي حتى أقتسمها معك».

كان مهتمًّا بتدبير كتابه، وسعيدًا لرؤيته معروضًا في مكتبة باريسيّة. لكن لماذا يحدّثني عن مصاعب النشر؟ ماذا ينوي أن يقترح على الناشر؟

«أعلم أنّه تلقّى عروضًا للترجمة. وبالمناسبة، لماذا لا تتكلّف أنت بالنسخة العربيّة؟ كنتَ دائمًا متفوّقًا في هذه اللغة».

عدلت عن تذكيره أنّني لم أكن أيضًا ضعيفًا في الفرنسيّة. لا بدّ لي من إبداء الصبر، والإصغاء أوّلاً إلى ما سيقول. لقد آثرني باختياري مترجمًا، غير أنّ في ذهنه شيئًا آخر.

قال بعد لحظة: «المشكلة هي أنّ العنوان عسير على التمويل... عفوًا، على التحويل. **رغبة تافهة في البقاء**... إنّه شيبّوليث، هذا

يعني. . . لكنّ هذه الكلمة متعذّرة الترجمة للغاية».

كان إذن مع ذلك قد انتهز مقامه الباريسي ليقرأ كتاب جاك دريدا عن پول سيلَن! حقّق تقدّمًا، ويعرض معارفه بمهارة، بل بلغت به الجرأة إلى انتقاد الناشر. كان يريد إظهار تفوّقه، لكن ليست هذه لحظة التصدّي لسفاهته. عندما أكّد على العنوان، فقد كان يتابع فكرة دقيقة لا أجد عسرًا في تبيّنها.

«قرأت ديوان Silhouettes الذي تفضّلت به عليّ. قرأته عدّة مرّات مدوّنًا ملحوظات. أتفكّر في نشره؟

سألته، متشاطرًا:

ـ ما رأيك في هذا الديوان الجديد؟

ـ رائع (النعت نفسه الذي استعمله للإشارة إلى فنّ باري). غير أنّي في مكانك كنت سأرتّب القصائد ترتيبًا مغايرًا وبدّلت العنوان. هذا الذي تقترحه يبدو لي باهتًا، لديّ واحد آخر لك».

احترزت جيّدًا من أن أسأله ما هو، عازمًا على الالتزام بأقصى الحذر. حيّره صمتي.

انتهى بأن لفظ: «Aboli bibelot».

لا جدوى من الردّ بأنّني قد تعوّدت على Silhouettes، لا حاجة للدخول في نقاش.

«عند من تفكّر في نشره؟

ـ أودعته عند الشكراني».

هنا، لم يكن راضيًا على الإطلاق، بل بدا عليه الفزع.

«هل توصّلت إلى ردّ؟

ـ لا ، ولكن لن يتأخّر . . .

ـ وإلّا ، يمكن التفكير في . . . » .

لم يتمّم فكرته. كنت أستشعر مقصده، وأعرف ما يرغب فيه، واستمتعت برغبة خبيثة في الدفع به إلى أقصى معاقله.

«التفكير في ماذا؟

ـ آه، لا شيء محدّد، لست أدري . . . فكرة هكذا، اشتراك شعريّ . . .

ـ المسألة مرفوضة قطعًا.

قال ناهضًا فجأة:

ـ كما تشاء، لكن فكّر مع ذلك في اقتراحي».

صار تقريبًا يهدّد، كأنّني أهنته بحرمانه من حقّ. اقتراحه! لم تكن تنقصه الوقاحة.

ذهب، طبعًا دون أن يدفع الحساب.

سهرة جميلة! لوبارو الذي يريد تملّك ديواني الثاني وعايدة التي ترفض مصافحتي. هو الذي حرّضها ضدّي حاكيًا لها ما لا يعلمه إلّا الله. ما عدا الأساسي: بالفعل هناك شيء لا يمكن أبدًا أن يكشف عنه.

في الفصل، كان السيد ڤونديز يقدّر كثيرًا عمر لوبارو ويستلذّ مداعبته. كان يقول لنا:

«انظروا جيّدًا رفيقكم، يبدو لطيفًا جدًّا، لكنّه ذئب. فرنسيّات يلقّبن أزواجهنّ بلقب Grand Loup، الله يعلم لماذا. شخصيّة من شخوص مارسيل پروست تُسمّى Saint-Loup (پروست كاتب فرنسيّ كبير كان يشكو من الربو، وبإشارة من طبيبه، كان يتداوى باجتراع كمّيات كبيرة من البيرة والكونياك، وهو ما لم يكن يروق جدّته)».

في الحقبة التي كان يخاطبنا السيّد ڤونديز بهذا الخطاب، لم تكن كلمة loubard (جانح شابّ) موجودة بعد.

لوبارو كان ذا صوت جميل وإلقاء ممتع. حين تلزم قراءة نصّ في الفصل، كان السيّد ڤونديز كثيرًا ما يتوجّه إليه. كان يلثغ بالرّاء كالفرنسيّين، وهو ما لم أستطع التمكّن منه أبدًا. كلّ شيء بدأ في المدرسة الابتدائيّة، منذ الأيّام الأولى. كان المعلّم، سي أحسين يعلّمنا الأبجديّة الفرنسيّة وفق منهاج خاصّ به: بدل a, b, c, d. . . ، اخترع: i, u, teu, o, a, deu. . . كان يلبس دائمًا جلّابيّة (بينما معلّم العربيّة يلبس الزيّ الأوروبي)، ولإفراطه في الأمانة، يفتح كتابه ويشرع في الدرس حتى قبل أن يدخل إلى الفصل. كان يجعلنا نردّد: la bougie, i, i. لم أعد أتذكّر موقع الراء في قائمته الأبجديّة، لكن ما إن نطق بها دون لثغة، حتى أصابت العدوى مجموع الفصل بطريقة يتعذّر علاجها.

لوبارو كان له حظّ الوجود في فصل آخر حيث كانت تدرّس مدام كوبّي (أي نسخة أو فرض، فأسماء المعلّمين لا تُخترَع) وهكذا تمكّن من إنقاذ لسانه. كان يستعمل بنجاح ألفاظ وتعابير اللغة الفرنسيّة المحكيّة، فيما أنا أتكلّم بمشقّة، إذ لا يتوافر لي سوى خطاب الكتب المدرسيّة. لكنّ الكلام شيء، والكتابة شيء آخر؛ هنا كانت حدود لوبارو.

كان ناقلاً بالولادة، في جميع الموادّ، وكان موفّقًا في ذلك؛ غير

أنّه كان يتعثّر بـ «إنشاء الفرنسيّة». حقًّا، كان بإمكانه أن يستنسخ في بيته فقرات من كتب، ولم يكن يمنع نفسه من ذلك، لكنّه لم يكن يدري أيّها يتلاءم مع الموضوعات التي عليه معالجتها. لذا كنت أحرّر له إنشاءاته، حتى وقت التمارين على الطاولة أو في الامتحانات. كان ذلك يسلّيني، أشعر أنّي ألعب مقلبًا خبيثًا على السيّد ڤونديز، والأطرف هو أنّ نقطة لوبارو أحيانًا كانت أعلى من نقطتي. لم أكن أستاء لذلك؛ فبعد كلّ شيء، تلك كانت نقطتي **أنا**، أعرف ذلك وهذا يكفيني. وأوج الصنعة كان أن يلمّح السيّد ڤونديز بالمناسبة إلى أنّني أنتحل لوبارو.

مبكّرًا جدًّا، تولّدت عندي رغبة كتابة قصائد. بدأ ذلك في مساء صيفيّ خانق. العبارات التالية فرضت نفسها عليّ: **نسمة تهبّ/ حرٌّ قائظ/ صرخات طيور**. وهذا بالضبط لحظة بدأت أحسّ بنسمة نديّة، خلاص غير منتظر. وإذا بمبتذلات تكتسب وقتذاك دلالة كونيّة، فجأة أدركتُ أنّها، خارج كلّ حكم قيمة، أبيات شعر، وأنّني بالعمل انطلاقًا من هذه الشذرات المُبدَّدة، يمكنني أن أفضي إلى قصيدة.

بعد ذلك وعلى فترات متفاوتة الانتظام، أبيات شعر أخرى أهدت نفسها لي، عطايا الآلهة، كما قد يقول ڤاليري. لكن لا أحد يلقي إليها بالاً، لوبارو الوحيد الذي يسمعني ويقدّر ما أفعله. كان مستمعًا جيّدًا، ولا بدّ لي من الاعتراف بأنّه جيّد النصح. لمّا جمعت ما يكفي من القصائد، ساعدني في ترتيبها لتشكّل ديوانًا متّسقًا. وهو أوّل من ذكر النشر، وهو الذي اقترح العنوان، **رغبة تافهة في البقاء**. كشفٌ موفّق، لا جدال في ذلك.

لمّا سألني باسْمِ مَنْ نحن سننشره، فاجأني السؤال (فقط بعد ذلك بقليل قدّرت كلّ مدى نحن). كنت متحيّرًا، فالجواب يبدو لي واضحًا: باسمي، هكذا تجري الأمور، إلّا إذا اصطنعنا اسمًا مستعارًا، لكنّي ما كنت أرى ضرورة لذلك.

الأشياء، وقتئذ، كانت غائمة في ذهني. النشر، يا له من ادّعاء! الرّغبة في أن تصير كاتبًا، ومماثلة أولئك الذين ندرسهم في الفصل، يا له من شطط! كنت في اضطراب عظيم، كأنّ تحوّلاً عميقًا لكينونتي سيحصل. الشعراء العرب القدامى كانوا يقولون عن أنفسهم إنّهم مجرّد ناطقين بلسان شياطينهم، وهوميروس الإلٰهي، في تواضعه، ما كان إلّا مردّدًا لتعليم ربّة الشعر.

قال لي لوبارو: «إذا شئتَ، سننشر الديوان باسمَيْنا نحن الاثنين».

هذه الفكرة لم أغتبط لها. مَن رأى ديوانًا ذا رأسين؟ يجوز ذلك في رواية أو قصّة، لكنّ القصيدة مفروض فيها التعبير عن فرديّة، وحساسيّة فريدة... إلّا إذا كانت قصيدة مناسبات أو أبياتًا هازلة نظمتها جماعة لغرض اللهو. كان الشعراء العرب يمارسون هذه اللعبة، فيقترح كلّ واحد مصراعًا، لكنّه كان عملاً هامشيًّا ودون أهمّيَّة.

الوقت يمرّ، وأنا لا أتّخذ قرارًا. ألحّ لوبارو:

«قصائد بهذه القيمة لا بدّ أن يطّلع عليها الجمهور».

ولمّا كنت أُجيب، دومًا، بأنّني لا أجرؤ، قال لي ذات يوم:

«إذا شئتَ، سأعيرك اسمي».

قبلت على الفور، تدفعني عاطفة الوفاء للصداقة. على كلّ حال، أنا أحاول البرهنة على قيمتي لنفسي، لا للآخرين. وقد سنحت لي

الفرصة للبرهنة، بالتخلّي عن عملي الأدبي، عن كمال روحي. عدم الظهور في الواجهة، عدم ارتداء ألوان صارخة، الزهد في أشكال الاحتفاء، الهروب من الأضواء... ذلك كان من طبعي، في التربية التي تلقّيتها، القائمة أساسًا على الخشية من الإصابة بالعين. أخاف من السعادة، من الاكتمال، كأنّهما سيجرّان بلا ريب كارثة لاحقة. إذا رضيت عن تفوّقي، فالباقي لا يهمّني بتاتًا، باطلٌ، جُفاءٌ. لو أنّني عشت في العصر الوسيط، لكنت ملامتيا، ذلك الصوفي الذي، كي يتقرّب من الله، يجتلب احتقار البشر: لا يفرّق أمواله ويتعيّش من الصدقة فحسب، بل يظهر بهيئة البؤس الذي يثير الاشمئزاز والإنكار.

تخلّيت في نهاية الأمر عن اسمي بنوع من التطيّر، كأنّني سأنجز طقسًا قربانيًّا: كي يُنشر لي، لا بدّ من هِبَةٍ، من انتزاع شطر من ذاتي. أأقول أيضًا إنّني، في منطقة ما من وعيي، كنت أتوقّع أن يكشف لوبارو لاحقًا الغاية الخفيّة للحكاية ويعترف بأنّني المؤلّف الحقيقي؟ ألم نكن نلعب مهزلة، ونخادع بعضنا بعضًا، وإذا حان الحين، سنكشف الحقيقة في النهار الجهّار؟

فكرة أن يقبل ناشر بالديوان كانت أكثر من بعيدة الاحتمال. طرق لوبارو جميع الأبواب، يستقبلونه بأدب ويشرحون له أنّ العمليّة ليست مربحة، وأن لا أحد يقرأ الشعر. أثناء هذه المساعي، كنت عند كلّ رفض موزّعًا بين الخيبة والارتياح. أخيرًا، قصد «الكاتبَ الكبير» أحمد ناصر الذي لم يزكّه عند ناشره الشكراني فحسب، بل قبل بكتابة مقدّمة.

حدثت المعجزة، وعند صدوره نال نجاحًا، صحيح أنّ ذلك بفضل مقدّمة ناصر الجميلة، ولكن أيضًا بفضل العنوان المثير. لم يتوقّف الافتتان به، وحتى أولئك الذين لم يفتحوا الكتاب كانوا يعرفون عنوانه ويعجبون منه. يسألون لوبارو عن دلالته، ويتساءلون إن لم يكن جماله صادرًا عن مُحَسِّن جناس الحروف. الأكثر ثقافة يُذكّرون أنّ الأمر يتعلّق باقتباس من پول إيلوار.

يهتفون: «من عنوانه فحسب، هذا الكتاب مهمّ»!

لم تعجبني بتاتًا هذه الملاحظة الأخيرة، وأخذت أمقت العنوان الذي لا أستطيع حتى النطق به سليمًا، أنا الذي يُردِّد الرّاء بشكل يُرثى له.

بعد ذلك كانت تلك الأحداث الصغيرة التي تلي عادة صدور كتاب نال حظوة الجمهور. دُعي لوبارو إلى ملتقيات شعريّة، واستضافته مراكز ثقافيّة مختلفة لجلسات قراءة، بمصاحبة الموسيقى وإنارة خاصّة. ابتذال خالص... كنت أستفظع سماع أبياتي توقّعها نغمات العود، وكأنّها ليست قادرة على الاكتفاء بذاتها. في كلّ مرّة أستطير غضبًا، لكنّني كنت أصفّق مع المصفّقين. دُعي لوبارو كذلك لبرامج في الإذاعة والتلفزيون، ونشرت صحيفة حوارًا مع صور (من بين الأسئلة: في أيّ لحظة من اليوم كان ينظم أبياته؟ كيف يجد الإلهام؟). وفي هذا اليوم أو ذاك، ستُخصّص له بحوث جامعيّة. ولتتويج الكلّ، حصل على منحة لشهرين في برلين، بدعوى تعلّم الألمانيّة وقراءة هولدرلين في لغة الأصل، هو الذي لم يكن يعرف من الشعر إلّا ما تعلّمناه في الفصل. بدأ طلبة أميركيّون سلفًا يهتمّون به ومجلّات، وجرائد، ومؤلّفو مختارات يطالبونه بقصائد جديدة.

في كلّ لقاء، يُطرح عليه السؤال الكلاسيكي:

«متى الديوان القادم»؟

بالطبع، كان عاجزًا عن ذلك. كان هذا بالنسبة لي تعزية ـ هزيلة للغاية: لن يذهب أبعد، سيكون رجل كتاب واحد. لكنّ هذا لا يعني شيئًا: شعراء كبار يُعرفون بفضل ديوان واحد. ثم، من يدري؟ بإمكان لوبارو أن يكتب أيّ شيء ويحظى بالقبول اعتمادًا على قيمة الكتاب الأوّل. كلّ ما يصدر عنه سيستفيد من حُظوة **رغبة تافهة**، وسيُستقبل استقبالاً طيّبًا. فضلاً عن أنّه، بمخالطته للوسط الأدبيّ، تعلّم الكثير من الأمور واكتسب الثقة.

قليلاً قليلاً، تغلغل سمّ الضغينة في ذهني. غيري يجتني المجد المستحقّ لي. ندمت ساعتئذ مُرّ الندم أنّني لم أختر اسمًا مستعارًا، لأنّني سأكون في كلّ لحظة قادرًا على إقرار الحقيقة وإظهار مزايا اسمي. لو فكّرت في فعل ذلك الآن، لن يصدّقني أحد. وإذا ما حصل أن صدّق واحد ادّعائي، سأبدو في نظره أبله. والأشدّ إغاظة كان عدم تغيير سلوكي مع لوبارو، واستمراري في الظهور بمظهر لائق.

في لحظات صفاء الذهن، كنت أقول لنفسي إنّني على أيّ حال لم أكن سأنجح في نشر ديواني، بالضبط بسبب ميلي إلى الانزواء في الظلّ. وإذا تصادف أنّ الديوان قد حمل اسمي، فلن يأبه له أحد. المتشرّد الذي لمحته في المرآة... النصّ وحده لا يكفي، هناك أيضًا الشخصيّة، الصوت، الأناقة، الهيئة، الراء الباريسيّة. والعجب أنّ نقّادًا وفلاسفة يتحدّثون عن موت المؤلّف!

بطريقة ما، لوبارو كان نموذجي. حاكيته لمّا قصدت الناشر نفسه، وحاكيته كذلك لمّا قصدت أحمد ناصر بأمل مقدّمة لديوان Silhouettes.

قبل ناصر بلطف قراءة مخطوطي. كان كاتبًا محظوظًا، معترفًا به ومدعوًّا إلى جهات الدنيا الأربع. طبعًا كان يُثير الحسد، ويُقال عنه إنّه غامض، يصطنع التعقيد، **متحذلق**. يحدث لي أحيانًا أن أطنب في معنى ثالبيه، وأنا خَجِلٌ من إحساس الشماتة المتولّد عن ذلك.

عادة، حين أصادفه، يأخذ بذراعي، ويسوقني إلى حيث ينبغي له الذهاب، ملقيًا عليّ خطابات مسهبة عمّا كان بصدد كتابته. أصغي إليه، ولمّا أفوه بكلمة، يتلقّفها ويستخدمها للشروع في خطاب جديد. كان يتلقّى ملاحظاتي باستمتاع ظاهر ويطوّرها مسهبًا دائمًا في معناي. لمّا دعوته يومًا لتناول قهوة، رفض.

«أفضّل أن نمشي معًا بضع خطوات، شيئًا ما على طريقة المشّائين، أليس كذلك»؟

كان يسكن بعيدًا عن وسط المدينة حيث لا يأتي إلّا نادرًا. متعجّلٌ دائمًا، متقلّدٌ بمحفظة يظهر أنّها فارغة، يتّخذ هيئة المتضايق حين أقترب منه لمخاطبته وكأنّني أزعجته، لكنّ توتّره يختفي فورًا بعد ذلك.

كان ذلك أثناء واحد من تطوافاتنا حين أخرج مخطوطي من محفظته وأخذ يتصفّحه.

«أحبّ كثيرًا القصيدة التي جعلت لها عنوان **الأعور**، عن المعتمد بن عبّاد والغراب، طائر يُنعت تقليديًّا بالأعور لأنّه نذير سوء. المعتمد، يا له من مصير! ملك مخلوع، في أغمات، ناءٍ عن أندلسه، ناءٍ عن

إشبيلية وبذخها، هجره الجميع، مشدودٌ إلى أغلاله. أبناؤه قد قُتلوا، وبناته يمشين حافيات في الطين وزوجته بقيت في إشبيلية. في تلك اللحظة تبدأ قصيدتك. يظهر المعتمد محدّقًا إلى السماء زاجرًا للطير. ينتظر. تمرّ الأيّام، والطيور أيضًا. ذات صباح، يجثم غرابٌ غير بعيد عنه على شجرة ضامرة وينعق، أليس كذلك؟ أقرأ لك:

«ما تبغي منّي يا نذير السوء؟

ما سمّوك الأعور إلّا لسبب.

ما أنت بقادر أن تفزعني،

قد بلغتُ سلام اليأس.

تنعق،

تقول إنّي قد جدّفت لكنّ الأمل تجديف.

لا تُلحف، قد انتهيت من كتابة شاهد قبري».

التفت إليّ ناصر:

«كلمة رهيبة، أن يكون الأمل تجديفًا. لكن ما إن تلفّظ بهذا حتى أبصر في البعيد قافلة وتعرّف بين القادمين على زوجته، تركب بغلة. أخذ يرجف بكلّ أطرافه، يهزّ أغلاله، يقوم ناظرًا جهة الغراب، ويقول له:

«أبدًا بعدُ لن أدعوك بالأعور».

«خاتمة جيّدة، لا تنفكّ تُذكّر بقصيدة **الغراب** لإدگار آلن پو، لكن بدلالة مختلفة. حقًّا، في الموقفين، الغراب له الكلمة الأخيرة، لكنّ «أبدًا بعدُ» لا تتطابق. إدگار پو يخسر رهانه على الأمل، والمعتمد على اليأس. خاتمتك، وما أشدّ سخريتها، مؤلمة، فرح، مرارة... **أبدًا بعدُ لن أدعوك بالأعور**...

«من الواضح أنّك تصرّفت في الحقيقة التاريخيّة، وهذا من حقّك، حين ذكرت **زوجة** المعتمد. الإخباريّون يتحدّثون عن «إحدى نسائه». لكنّك أحسنت صنعًا بالحديث عن واحدة، وإلّا كانت قصيدتك ستتّخذ مظهرًا آخر وتكون أقلّ تأثيرًا، ماذا أقول؟ ستصير مضحكة.

«أحاول أيضًا أن أعرف لماذا هذه المرأة على ظهر بغلة. حمار، هذا وضيع، وستشبه زوجةُ المعتمد حينئذ دُلثينيا دِلْ طُبوسو. ولو أنّ... بعيرٌ بهودج أو فرسٌ، سيكون أكثر نبلاً، مشهد رفيع، سموّ، المرأة بكلّ فخامتها.

«أمّا عن ذكر القافلة... أهو لازم؟ هذا يُدخل لمسة شرقيّة... ألا يكفي القول إنّ المعتمد تراءت له في الأفق امرأة وفجأة أدرك أنّها زوجته. وحيدة وعلى الأقدام. ملكة تسعى على قدميها لتلحق بملكها... تنطلق من إشبيلية، وتقطع مضيق جبل طارق، وتهبط في طنجة، وتسير حتى مراكش ومن هناك تمشي نحو أغمات. يراها المعتمد حافية، مُضناة، ناحلة، لباسها أطمار... وإذا به يقوم، إلخ. في أيّ شيء يفكّر لمّا يراها في هذه الحال؟ وماذا يقول عنها للغراب؟ لكن أنا الآن خيالي يحتدم، وإذا بي أبني مشهدًا سينمائيًّا وأبدو وكأنّني أصحّح قصيدتك، وهذا ليس من قصدي إطلاقًا، لكنّك تدفع القارئ إلى التصرّف على هذا النحو، تدعوه إلى ابتداع قصيدته هو انطلاقًا من قصيدتك».

تصفّح ناصر الديوان، بحثًا عن صفحة بعينها.

«آه، ها هي، وجدتها! قصائدك، وأكرّر ذلك، لها هذه الميزة النادرة أن تمنح الرغبة في كتابة الشعر. عندي ميل إلى ما قبل الأخيرة، **أمنيات**، التي ليس عنوانها دون مماثلة مع عنوان الديوان. خفّة،

غموض، غِلالة... تصف رجلاً وامرأة يمشيان، التقيا منذ قليل، لا يكادان يتعارفان. حمائم تعبر السماء الزرقاء (الطيور، مرّة أخرى):

«رُسُل العالم الآخر،
أتسمعين رسالتهم؟
هي واحدةٌ لنا نحن الاثنين؟
جاء الخبر.
سريعًا، لنقل أمنية قبلما تنطوي الأجنحة.
هذه الهمسة لا يعلمها أحدنا:
لتدم هذه اللحظة!
الطيور بسمعها كلّه تحمل الجواب.
تخلو السماء.
كآبة مباغتة،
لكن فات ما فات.
أَسيران للأمنية نحن،
والطيور بعيدة.
آلة القَدَر،
دَفْعَةٌ في الكون،
قضاء قنّاص الطير».

علّق ناصر: «الشخصيّتان مقيّدتان بالأمنية، كما المعتمد بأغلاله. التراجع منذ الآن عبث. وبالمناسبة، لاحظت في هذه القصيدة ذكرى مبهمة عن گوته، في الفقرة حيث فوست، وهو يستحضر اللحظة العابرة، يعلن أنّه لن يقول لها أبدًا: "توقّفي، ما أجملك"».

صمت ناصر، بتقطيبة خفيفة. كان لديه شيء غير سارّ يقوله لي. أحدس ما هو:

«أنت تملك صوتًا، شعرك... سرديّ، نعم، تروي في كلّ مرّة لحظة ممتازة، شذرة من حكاية مؤثّرة. تكتب نوعًا ما مثل عمر لوبارو. من الواضح أنّك قرأته جيّدًا وتمثّلت تمامًا طريقته...».

الضربة القاضية. محكوم عليّ أن أكون محاكيًا للوبارو، مقلِّدًا. وحتى لو تمكّنت من نشر ديواني، سأبقى في ظلّه، أكتب على طريقته. سأجده دائمًا في طريقي: ليس فحسب قد غصبني ديواني **رغبة تافهة**، بل هو عقبة أيضًا لكلّ ما سأنتجه في المستقبل. مفروض عليّ أن أكتب بطريقة مختلفة، أن أغترب عن ذاتي، أتخلّى عن صوتي لأتبنّى صوتًا آخر. لكن سيكون ذلك كارثة، ما لي إلّا صوت واحد، وحيد.

لو قلت لناصر إنّي مؤلِّف **رغبة تافهة**، سيتبلبل ويجد نفسه أمام مشكل شائك، لا سيّما أنّه كتب مقدِّمة للديوان وصار عن غير قصد متورّطًا في هذه القضيّة. سيتّهمني بأنّني كذّابٌ. وبافتراض أنّه سيصدّقني، فلن يكلّمني بعدُ أبدًا، لكنّه ـ يا للمفارقة ـ سيجامل لوبارو.

كنت، وأنا متيقّن من أنّني لن أتوصّل إلى نشر Silhouettes وأنّ

كلّ أمل في الأخذ بالثأر باطلٌ، أترصّد كلّ صباح، من أعلى طابقي الثالث، وصول ساعي البريد. الصوت العذب لدرّاجته الناريّة. . . لكن لا رسالة تصلني من الناشر. بعد شهور من الانتظار الواهم، عزمت على الذهاب إليه لأتثبّت من مصير مخطوطي.

تلقّاني الشكراني على عتبة مكتبه، ودون أن يدعوني للدخول، تكلّم معي بجفاف عن Silhouettes:

«لا أنشر أشعارًا. عملت استثناء لعمر لوبارو بسبب ذلك الفظّ ناصر الذي صوّره لي شاعرًا واعدًا. الجميع يقول لي إنّ **رغبة تافهة في البقاء** ديوان جيّد، لكن لا أحد يقتنيه. لم نبع منه إلّا مائتي نسخة، وإذا لم تكن له ترجمات، لن أستردّ أبدًا نفقاتي. حقًّا، اشترى الإيطاليّون الحقوق، الإسبان والألمان يتردّدون، أخبرني الأميركيّون أنّ الديوان بيد لجنة القراءة، لكن لا أثق في هذا كثيرًا. في رومانيا يرغبون في نشره، شرط أن لا يدفعوا لي حقوقًا. قيل لي إنّ شاعرًا مبتدئًا يترجمه الآن إلى العربيّة، يؤجّل نشره لأنّه لم يتوصّل، على ما يبدو، إلى تأدية العنوان بالعربيّة، أنا من جهتي، لستُ متعجّلاً، لأنّي لا أرى فائدة من نسخة في هذه اللغة».

لو كان لوبارو هو الذي جاء يقترح Silhouettes، لتمّت الأمور بشكل مغاير، والمرجّح جدًّا أن يحظى بالقبول. قمّة السخرية: لكي أنشر، ينبغي لي من جديد أن ألجأ إلى اسم لوبارو. . . شعري **يوائمه** أفضل منّي.

تجهّم الشكراني بغتة ورماني بنظرة مرتابة.

«غريب، أودع لوبارو هنا مؤخّرًا مخطوطًا يتضمّن القصائد

نفسها، ولو أنّها مرتّبة ترتيبًا مخالفًا وبعنوان مختلف: Aboli bibelot. لن أنشره، على الأقلّ في الحاضر. لكن ما هذه الحكاية؟ يُقترَح عليّ الآن ديوان شعر باسمَيْ مؤلّف وعنوانين! لا بدّ من استيضاح هذا...».

رنّ جرس الهاتف في هذه اللحظة فانتهز ذلك لينسحب ويغلق مكتبه. جنّبني ذلك تفسيرًا مهينًا.

كنت مُدمَّرًا. لوبارو يحاول، دون علمي، أن يمتلك بغدر ديواني الثاني... لكن هذه المرّة، لن يتمّ هذا، سأبوح بكلّ شيء. ولدعم دعواي، سأعرض القصائد التي لم أنشرها، وكذا المسوّدات التي احتفظت بها. حقًّا لن يصدّق مزعمي أحدٌ، لكن سيتبقّى من ذلك شيء ما، ارتياب سيتسلّل إلى الأذهان.

وأنا أبتعد عن العمارة التي يوجد بها مكتب الشكراني، صادفت عايدة، أجمل من أيّ وقت مضى. منذ الرواق الفنّي، لم يفارقني أملُ اللقاء بها لحظة واحدة. كنت أذرع المدينة بحثًا عنها، راغبًا في تبرير سلوكي معها، رغم أنّ الأشياء مختلطة في ذهني. ما كنت على الأرجح لأُعيرها كثيرًا من الاهتمام، لو كان مسلكها سليمًا معي. حقًّا، كنت سأفكّر فيها أحيانًا، لكنّها ما كانت لتصير هُجاسًا بالنسبة لي، كما هو الحال. أكانت قد أهانتني فقط لهذه الغاية، حتى لا تفارق أفكاري؟ إن كان هذا مقصدها، فلقد نجحت.

كانت في ذاك اليوم تتأبّط ألبومًا وتبدو متعبة قليلاً. استبدّ بي غضبٌ مفاجئ، فسألتها بدون مقدّمات لماذا ترفض مصافحتي. نظرت مباشرة في عينيّ وهي تشعل سيجارة.

«لأنّك تُشيع نبأ أنّك أنت مؤلّف **رغبة تافهة في البقاء**. موقفك من عمر لوبارو شنيع ولا تستحقّ أيّ مراعاة».

بلغ من انذهالي أنّني لم أستطع النطق بكلمة. كنت في حاجة إلى التفكير. هي تعرف إذن... لكن من كشف لها عن الحيلة؟ ليس لوبارو، الشريك، بأيّ حال. لقد حدستْ ذلك من هذا المؤشّر أو ذاك؛ إلّا إذا افترضنا أنّ لوبارو، مستبقًا، قد تكلّم. طبعًا عَرَضَ الأمور على طريقته زاعمًا أنّني، بسبب الغيرة، كنت أدّعي عمله، وأنّني مجنون خطير ولا يعرف كيف يتخلّص منّي. كان يهيّئ الأذهان بمداجاة. لا أحد سيصغي إليّ حين سأطالب بحقوقي.

بذلت جهدًا لضبط نفسي وسألت عايدة إن كان لوبارو هو الذي روى لها هذه الحكاية.

«الجميع يعلمون ويستفظعونك. لم ترض بأن سرقت منه **رغبة تافهة في البقاء**، حتى أخذت تضغط عليه ليتنازل لك عن ديوانه الثاني، الذي ينوي إصداره قريبًا. أنت مقيت. انظر إلى نفسك، إنّك تبدو بهيئة خائن في ملودراما».

تمكّنت من أن ألجلج:

«هذا محض اختلاق. لوبارو يحسدني، يريد أن يكون أنا، أن يحتلّ مكاني.

ـ من تريد أن يصدّقك في هذا؟ ثم، لماذا لم تنشر شيئًا بعد ذلك، ولا قصيدة صغيرة واحدة؟

ـ لم أجد ناشرًا.

ـ توجد دائمًا وسيلة للنشر، قد لا تكون على شكل كتاب، لكن في صحيفة أو في قراءات شعريّة.

ـ لكنّهم يرفضونني.

ـ ولم تسأل أبدًا نفسك لماذا»؟

سحقت سيجارتها تحت عقب حذائها وأحسست أنّها تدوسني أنا. عبثًا أحتجّ، سترفض الإصغاء إليّ. لست كفؤًا للوبارو، الأنيق، اللبق، الحاضر البسمة.

«ما يتبقّى لك فعله هو أن تفضح نفسك علنًا. سيصفحون عنك بسبب حالك الداعية إلى الرثاء، وسيُبدون تسامحًا وينتهي الأمر بأن ينسوك. الأفضل لك التعجيل بهذا، مثلاً أمام المشاركين في الندوة عن مفهوم المؤلِّف التي ستُقام في الأيّام القادمة. ستصعد المنصّة وتعترف. ستحسّ حالك تتحسّن، صدّقني، ستتخلّص من العبء الذي يُثقل ضميرك».

لا شكّ، كانت عندي نزعة الضحيّة. التهمة ضدّي عدوانيّة وظالمة، لكن حتى لا أخيّب أمل عايدة، كنت مستعدًّا للتسليم بجنايتي. كنت ممتنًّا لها بأن كلّمتني، واهتمّت بمصيري وتريد إنقاذي من نفسي. بعد هذا ربّما مدّت يدها لي. لمّا غادرتها، كنت أفكّر في الأفلام حيث الخائن، رحمةً به، يُعطى مسدّسًا ليضع حدًّا لحياته بنفسه.

في بهو الفندق الكبير، كانت مستخدمة الاستقبال، الواقفة بجانب مكتب مثقل بالمطويّات، تضع الأحمر على شفتيها متفحّصة نفسها في مرآة صغيرة. لم تكن لا جميلة ولا دميمة، لكنّ أظافرها الطويلة المصبوغة، وشفتيها بلون قرمزيّ صارخ، تجعلها تبدو بمظهر رهيب.

كنت مبهورًا بالاهتمام الذي تضعه في تجميل نفسها، غارقة في صورتها. لم يبد عليها أنّها تنبّهت لوجودي. أخيرًا، راضية عن نفسها، شبعانة من صورتها، نظرت إليّ باسمة من ذكرى ذاتها. اضطربتُ قليلاً من هذه الأنوثة المعروضة (لا شكّ لها نهدان رائعان)، قدّمت نفسي وطلبت البرنامج. كنت أتلعثم بشكل يُرثى له، رغم الجهد الذي أبذله لأبدو واثقًا من نفسي.

«**البرنامج**»، ردّدت، لاهية، محاكية بفظاعة نطقي بالرّاء المردّدة.

تعوّدت هذا، تلاميذي لا يفلِّتون فرصة للتهكّم من نطقي المعيب. شجّعني لطفها، فسألتها عن اسمها.

«فردريك»، همست ببسمة معسولة، ملطّخة بأحمر الشفاه.

كنت جاهلاً أنّ لهذا الاسم صيغة في المؤنّث. قلت لها ذلك، أضحكها قولي. كم مرّةً قيلت لها هذه الملاحظة! ذاك كان امتيازها، فخرها. كي أجاملها، أضفت أنّي أعرف شخصًا اسمه فردريك مورو.

سألت: «هل هو أحد المشاركين في الندوة»؟

أجبت أنّ الأمر يتعلّق بشخص أعرفه معرفة عابرة، لم تلحّ لكنّها، وقد صارت جادّة فجأة، ناولتني البرنامج. أدركتُ أنّ شيئًا ما قد فاتها، وستحاول، بعض الوقت، أن تعرف من هو فردريك مورو. أفسدتُ كلّ شيء: هذه الشخصيّة التي كانت ستقرّب بيننا قد فصَلتنا في الواقع. لم يكن هذا نذير خير.

في انتظار جلسة الافتتاح، هام المشاركون في الحديقة. وكما الحال دائمًا، وجدت نفسي بين أشخاص أعرفهم يتظاهرون بأنّهم لم يروني. كانت توجد قهوة وفُرنيّات على مائدة. تناولت منها متسائلاً إن

كان لي الحقّ في ذلك، لأنّني لم أكن بحصر المعنى أحد المتدخّلين. حضوري كان مساهلةً لا أكثر، ينبغي لي فقط حضور الجلسات، واحتمالاً المشاركة في النقاش. الحضور كثيرون وتساءلت إن لم يكن لَمُوجي في الأخير على حقّ في مطالبته الجمهور بأداء رسم الدخول.

كانوا يجرّون الخطى، يتسكّعون كأطفال هربوا من المدرسة، لا أحد يرغب في مغادرة الحديقة المشمسة، ويتجمّد على مقعد يستمع لجامعيّين ثرثارين. كلّ واحد يتمنّى أن تمتدّ الاستراحة في الحديقة، لكنّ لموجي صفّق بكفّيه ودعا الحضور للدخول إلى القاعة.

وسط الحشد، وجدت نفسي قريبًا جدًّا من عايدة.

أمرتني: «هيّا، ولا تنس وعدك بالاعتراف بكلّ شيء».

كانت خطبٌ رسميّة ثم عروض مختلفة؛ تحدّثوا عن موت المؤلِّف، مع الاستشهاد برولان بارت وميشال فوكو. ذكّروا بوضعيّة المؤلّف في العصر القديم، والوسيط، والعصور الحديثة، أكّدوا على القطيعة الحاسمة التي أحدثها ديدرو، وتوسّعوا في الكلام عن المخادعات الأدبيّة من انتحال، واختلاق، ومحاكاة جادّة، وأسماء مستعارة، ومخطوطات يُزعم العثور عليها... واستشهدوا كذلك بالنصوص المسمّاة يتيمة، التي ضاع أصلها ولم تُعرف منها سوى ترجمتها.

وكأنّ ذلك مصادفة، كان عرض لموجي يتناول «**مؤلّفي الليالي**»! كلّ هذا القدر من التدليس... ذلك ما حتّم عليّ التدخّل، فيما كنت مصمّمًا على أن لا أتكلّم طوال مدّة الندوة. لا يهمّ إن كان هذا سيزيد من احتقار عايدة لي. تلك كانت اللحظة الخطرة، كنت أعرف أنّ ما

سأقوله سيُستقبل استقبالاً سيّئًا، لكن فات أوان التراجع. هاجمتُ لموجي واصفًا عرضه بأنّه سلسلة من المبتذلات والمتناقضات. إذا ما أعلن أحدٌ أنّه سيتحدّث عن مؤلّفي **الليالي**، فأقلّ ما يفعله هو أن يورد أسماء. والحال أنّ لموجي لم يذكر اسمًا واحدًا. وفي اندفاعتي، واصلت مؤكّدًا أنّ الاسم الوحيد الذي يفرض نفسه هو اسم أنطوان گالّان الذي، في مطلع القرن الثامن عشر، أصدر ترجمة فرنسيّة **لليالي** يراها البعض أحيانًا متفوّقة على الأصل. وبفضلها والأصداء التي أثارتها عرف العرب، إن لم يكن وجود **الليالي**، فعلى الأقلّ أهمِّيَّتها. ختمت خطابي قائلاً إنّ شهرزاد هي في محصّل الأمر من إبداع گالّان.

ذلك كان أكبر خطأ في حياتي. خرج الجمهور عن طوره من الغضب؛ صيحات الهزء والسخرية، احتجاجات، صراخ، شتائم، لم يوفّروني شيئًا. كنت أتوقّع ذلك، لكنّي كنت أبعد ما يكون عن توقّع كلّ هذا العنف. قدّرت آنذاك كم **الليالي** عزيزة على العرب الذين لم يعبأوا بها طوال ألف عام.

ولمّا كنت أحاول إيضاح وجهة نظري، صفّق أحدهم، متبوعًا على الفور بآخرين. التصفيق كوسيلة آثمة لإسكات متدخّل غير مرغوب فيه... عند ذاك، ببلاهة، غضبت وتلفّظت بكلمات جديدة متعذّرة على الإصلاح:

«هذا الكتاب الذي تعتزّون به إلى هذا الحدّ لم يصرْ عربيًّا إلّا لأنّ الأوروبيّين قرّروا ذلك. لقد **صنعوا** كتاب العرب، قالوا لكم: «هذا كتابكم»، فتبنّيتموه. وها قد وقعتم في شباك حكاياته، لن تستطيعوا أبدًا الإفلات منه. سيجثم عليكم حتى فَناء القرون».

دون أن أعي ذلك، كنت أخاطب الجمهور كأنّني غريبٌ غير

متورّط في هذه الحكاية. من جديد، تصفيق شديد لقطع كلامي. لم تكن سحنات القرود هذه تريد الإنصات لي، إلى الجحيم. قمت لأغادر القاعة، وكنت سأشقّ طريقي من فوق أرجل الجالسين بجواري فإذا بي، كأنّ الأمر كان مقصودًا، أتعثّر وأسقط بطريقة تثير الاحتقار. قهقهات وتصفيقات رافقت الخروج الظافر للبطل.

بدل العودة إلى البيت، مكثت في الحديقة.

كنت مصمّمًا على أن لا أشترك في أيّ ندوة. كلّما تكلّمت إلى الجمهور، كنت أولّد عدم الرضى. العالم لا يلائمني، لا يريدني، لم أكن أصنع سوى أن أجعل نفسي مهزأة كلّما تناولت الكلمة. أقسمت أن أظلّ في بيتي، أكرّس نفسي لشعري. لكن في الحقيقة، كنت أعلم أنّني لست صادقًا، وإلّا لماذا بقيت في هذه الحديقة؟ جاذبيّة الجماعة، التي لم أتخلّص منها بعد...

أن أتلقّى إهانة جديدة أمام عينيْ عايدة... لو بقيت لي ثمالة من كرامة، لَوَجَب عليّ أن أتخلّى نهائيًّا عن الرغبة في معاودة رؤيتها. لماذا هذا الإحساس بالذنب الذي يقتحمني كلّما فكّرت فيها؟

فجأة، رأيتها تخرج من قاعة المحاضرات. ضجرتْ من غباوات يتلفّظ بها أساتذة مغرورون وقرّرت الانصراف. لا، إنّها تنعطف ناحيتي، وبهيئة مهمومة، تأخذ مكانها جنبي. من الظاهر أنّها حانقة عليّ، حانقة لأنّها قد جلست بقربي. كانت تنعم عليّ بهذه الحظوة لتدفعني إلى أن أعترف، لتذكّرني أنّ عليّ، بتصريح علنيّ، الاعتراف بزلّاتي.

قالت: «أتعرف أنّهم تحدّثوا كثيرًا عن مداخلتك؟ أخطأتَ في الانصراف بتلك العجلة. استعاد ناصر فكرتك، وطوّرها بحماس وكلّ واحد أراد أن يدلي بدلوه. وكان لا بدّ من سلطة رئيس الجلسة للانتقال إلى شيء آخر. أساؤوا فهم قولك. ما أردتَ قوله، بحسب ناصر، ليس أنّ **الليالي** إبداعٌ أوروبي، بل إنّ ترجمة گالّان هي الأصل في الحداثة الأدبيّة بأوروبا وفي سائر العالم بعد ذلك».

كانت عايدة تكلّمني بلطف. أنا مدينٌ بهذا التغيّر المفاجئ في السلوك لناصر، الذي، لا إراديًا، قد زكّاني، على نحو ما، عندها. حتى في قضايا الحبّ، التزكية ضروريّة! كنت أستفيد من ضمان ناصر الذي يمتلك فنّ القبض على أيّ فكرة كانت، مهما بلغت غرابتها، وعرضها من زاوية مختلفة وإكسابها الأهمّيّة. دافع عن وجهة نظري (أو ما كان يعتقد أنّه وجهة نظري) في **الليالي**، فيما بدت لي غير قابلة للتبرير لحظة كنت أعرضها. غمرتني على الفور عاطفة من الامتنان نحوه، ووعدت نفسي أن أدافع عنه بدوري ضدّ كلّ أولئك الذين يحسدونه لنجاحه، ولموهبته. لو عنّ لهم أن يردّدوا أنّه غامض، سأقول لهم أنا إنّ الغموض في أذهانهم وإنّهم في حاجة إلى مراجعة صيغة قراءتهم.

كانت عايدة تبدو ساهية كأنّما تتابع فكرة. كانت على وشك أن تتكلّم، لكنّها عدلت عن ذلك، وأخرجت هاتفًا نقّالاً من حقيبتها وابتسمت للشاشة.

قالت ملتفتة تجاهي، محدّقة في عينيّ بنظرة مباشرة: «أقرأ روايات بوليسيّة ولا شيء غير ذلك. أجمعها أيضًا، ويمكنني أن أؤكّد أنّني جمعت منها كمّيّة لا يُستهان بها. أقرأها على طريقتي: ما إن تُرتكب جريمة القتل، عمومًا في نهاية الفصل الأوّل، حتى أقصد مباشرة

الفصل الأخير، لأعرف من يكون القاتل. ولمّا لم تعد هويّته تشغلني، أقرأ آنذاك ما سبق، مهتمّة بالحيل التي يبسطها لإخفاء الحقيقة. لكنّ السرّ الذي يحمله يبهظه، وفي مكان ما من ذاته يرغب في تقاسمه والتخلّص منه. عبثًا يمحو آثار جرمه، يُخلّف واحدًا، واحدًا على الأقلّ، أثرًا صوتيًّا مثلاً، منتصف الليل، دون أن يذكر اسمه. كأنّه يقول، خمّنوا من أنا، لكنّني أعرف من هو لأنّني أعرف الخاتمة».

تحدّثني عن الرواية البوليسيّة، عن طريقتها في قراءتها، فيما أنا لم أسألها شيئًا. البدء بالخاتمة، تحليل لعبة القاتل مع الحقيقة... كانت تمهّد الميدان لتعلن لي عن شيء. في الجوّ لغز، مشكلة تحاول حلّها وتعتقد أنّني أملك الحلّ. حين تحدّثت عن القاتل، فأنا الذي تقصد، وهذا مقلق. لأيّ حقيقة قد لمّحت؟ ما جنايتي مرّة ثانية؟ ألم تتحدّث عن رسالة صوتيّة مجهولة الأصل؟ من الواضح أنّني، في نظرها، قد ارتكبت دناءة، شيئًا شائنًا.

قرّبتِ الهاتف من أذني. كان صوت ذكوري مألوف ينطق:

«مساء الخير عايدة، لم أقدر على مقاومة إغراء أن أتلفن إليك، ولا بدّ لي مهما كلّف الأمر أن أبوح لك بعواطفي. أحبّك حبًّا عميقًا صادقًا. أنا مجنون بك. منذ أوّل يوم رأيتك، لا أنام. ارحميني، ما عدت أتحمّل. السعادة لن أعرفها إلّا معك. نامي جيّدًا».

ذلك كان صوتي يصلني من هاوية رهيبة، لا شكّ في هذا. لكن متى نطقتُ بهذا الكلام؟

قالت عايدة: «تلقّيت هذه المكالمة ذات ليلة في الثانية وعشر دقائق».

اجترأتُ على مكالمتها في ساعة غير لائقة، أيقظتها لأتمنّى لها نومًا طيّبًا ـ وضع لا يخلو من الدعابة في ظرف آخر! ودون أن أذكر من أنا.

«أكنت أنت»؟

لا بدّ لي من تجميع أفكاري. لا أتذكّر أنّي قد تلفنت لها. وكيف لي ذلك وأنا لا أعرف رقم هاتفها؟ إضافة إلى أنّني لا أملك محمولاً، وهاتفي الثابت معطّل. ومع ذلك، فقد اتّصلت بها. ذات ليلة إذن، هائمًا في الدروب، ناديتها من هاتف عموميّ. ربّما كان ذلك بعد افتتاح المعرض الفنّي، أو قبله، ممّا يفسّر رفضها مصافحتي. لا، هذا لا يتماسك، لأنّني لم أعرف اسمها إلّا في ذلك المساء، وهو في رسالتي. «مساء الخير عايدة...» لكنّ هذا لا يدلّ على شيء: ليس من المستبعد أن أكون قد عرفت اسمها قبل افتتاح المعرض، وأنّني نسيته بعد ذلك، كما نسيت أنّني قد تلفنت لها. ارتكبتُ سماجة، وأخطر من ذلك لست أتذكّر لا أنّي تلفنت لها، ولا الطريقة التي حصلت بها على رقمها.

وعلى هذا، الله يعلم ماذا فعلت غير ذلك دون أن أعي، والله يعلم ماذا سأفعل لاحقًا. هكذا توجد أفعالٌ تُفلت منّي، أرتكبها في حال غير طبيعيّة، ولا تترك أثرًا في ذاكرتي. لستُ موثوقًا، أغيب عن العالم والتصوّر الذي لي عن ذاتي يتضمّن شروخًا، وأغلاطًا، واختلاقات. فهمت إذ ذاك لماذا ينفر منّي الناس أو ينظرون إليّ شزرًا. لا بدّ أنّ كلّ واحد منهم لديه حكاية يحكيها بصددي، واحدة من حماقاتي، أو بالنسبة لأرحمهم، واحد من أشكال سهوي. لا يذكرونها بمحضري، حياءً، حتى لا يُحزنوني. ما كنت أظنّ أنّني أخفيه هو بالضبط ما كان يظهر للعيان. كنت أحيا في وهم أنّني مؤلّف **رغبة تافهة**، كنت أدّعي ذلك من

دون حقّ، دفعني إعجابي بلوبارو إلى إرادة التماهي به. كنت قد حكيت أنّه قد غصبني قصائدي، فسخروا منّي، وصرت منذئذ أبدو كالغراب يتزيّن بريش الطاووس. هي هذه علّةُ رفض عايدة مصافحتي.

اتّخذت قراري: لن أضع القدم خارجًا، سأظلّ في البيت، وللتخفيف من الأضرار، سأختزل إلى أقصى حدّ صلتي مع الغير. لا ينبغي ليقظتي أن تتراخى ثانية واحدة، لا بدّ لي أن أصحّح ذاتي، أعتني بهندامي، أحمل ربطة عنق، أُلمّع حذائي كلّ يوم، أسير منتصبًا مرفوع الرأس، أنظّف أسناني بالفرشاة ليس فقط صباحًا بل أيضًا مساءً، خصوصًا مساءً، لحظة كلّ الأخطار. لكن لو توصّلتُ إلى البقاء متيقّظًا في النهار، كيف لي بترويض جانبي الليلي؟ من الواضح أنّ جنوني يهيج أثناء الليل وأتحوّل شخصًا آخر.

عاودت الاستماع إلى الرسالة. دائمًا ذاك الصوت القاتم، والمرعب، والمضحك بسبب التفاهات التي يهذر بها. **منذ رأيتك، لا أنام!** لماذا لا أضيف: ما عدت آكل؟ **ارحميني!** أتخطر على بال أحد مثل هذه الأقوال؟ أهذا هو البوح بالحبّ؟ يا للبؤس! مبتذلات، هذا ما تلفّظت به. سنين من التكوين الأدبيّ لأفضي إلى هذه النتيجة. عزاء هزيل: كنت عاجزًا، في حال اليقظة، عن الفَوْهِ بهذا الكلام.

«أكنت أنت، أليس كذلك»؟

كيف إنكار البديهي؟ كانت تستنطقني على طريقة المخبرين. تمسك بالجاني، وبعد أن تعرض أمامه دليلاً لا يُدحض، ترغمه على الإقرار. هذا يعني أن أعترف بفعلتي، موضّحًا أنّني لم أكن أفهم ما حصل لي، وأنّني آسف على إزعاجها. على الخصوص، لن أحاول تبريرًا بإضافة أنّني أحبّها، وأنّ ذلك فوق طاقتي، وأنّني دائم التفكير

فيها، وإلّا سأسقط في المبتذلات التي كنت بصدد فضحها. عبارة «أحبّك» بدت لي دائمًا مضحكة، حتى لو نطق بها في لحظة دراميّة بطلُ رواية أو فيلم. ثم، بالنظر إلى الظروف، لم يكن الوضع ملائمًا لبَوْحٍ بالحبّ، فالذي قد علمته عن نفسي أخطرُ بكثير.

في تلك اللحظة، غادر لوبارو بدوره قاعة المحاضرات. مقطّبًا، كان يتردّد في مقاطعة خلوتنا. لو التحق بنا، لكان قد أعفاني من ذلّ الاعتراف، لأنّ عايدة لن تواصل الاستنطاق في حضوره. لكنّها أومأت إليه بإشارة سريعة باليد والتفتت إليّ. كانت تبدو متضايقة من ظهوره في تمام اللحظة التي كنت سأعترف فيها. فهم وجلس بعيدًا. لا بدّ أنّهما كانا قد تحدّثا عنّي، بعد أن درسا حالتي، وباتّفاق مشترك، قرّرا القيام بهذا الاستنطاق. بعد هذا، سيعلّقان على المشهد ضاحكين، وذات يوم، مفعمين بالشفقة، سيذهبان بي إلى طبيب نفسيّ.

«لاحظ، أنا لا أعاتبك. لم يكن ذلك بغيضًا، حتى ولو أنّني قد أُوقظت في عزّ الليل. بل كانت تلك مفاجأة جميلة»!

أكانت هذه حيلة كي أعترف؟ أن تبدو متسامحة كي تقبض عليّ بشكل أفضل. إلّا إذا اعتقدنا أنّها تحنّنت فجأة بمرأى ذعري... واضح أنّها تشفق عليّ، وتريد بلطف أن تقول لي لا تفعل ذلك ثانية. تبدو كريمة، وتعاملني كمريض ينبغي علاجه باللطف. كانت تلك مفاجأة جميلة! أينبغي أن أفسّر هذا بمثابة تشجيع؟ لكن على هذا الأساس، فهي راضية عن رسالتي، وعن بوحي بحبّي وهذا يغيّر كلّ شيء. أن أعلم أنّها تهتمّ بي في اللحظة التي أكتشف فيها أنّ ذاكرتي تخونني...

آليًّا، واصلت إعادة الاستماع إلى الرسالة، وفجأة شعرت بما يشبه رجّة، صدمة بحيث أفلت المحمول من يدي. انحنيت لالتقاطه

وانتهزت ذلك لأتلافى النظر إلى عايدة وإخفاء الاضطراب الذي سبّبه ما قد اكتشفته: الصوت الليلي كان يستعمل الراء باللثغة، فيما أنا أردّد الراء! كان هذا الدليل الدامغ على أنّني لستُ صاحب المكالمة. الراء المردَّدة كانت علامتي الفارقة، غير القابلة للمحو، شِيبّوليثي أنا. أشار عليّ أساتذتي دائمًا بتصحيح هذا العيب، وليس فحسب أساتذتي، وإنّما كلّ أولئك الذين يبلغ إلى علمهم أنّي حاصل على إجازة في اللسانيّات وأنّي أدرّس الفرنسيّة. كنت، بضيق عميق، حضرت جلسات صوتيّات تصحيحيّة. سرعان ما أصابني الإحباط، فأنا عاجزٌ عن تغيير نطقي. ومهما يكن، أأنا أرغب حقًّا في تصحيح نطقي؟ على نحو ما، كنت أوثر رائي المردَّدة ولا أرغب في فقدها.

الصوت المألوف في الهاتف كان صوت لوبارو. صوته ونصّه مصوغان بالطبع كقصيدة، مع رجوع إلى السطر بعد كلّ جملة. ذلك هو الشعر الذي يقدر عليه وكان للأسف شعرًا بدا أنّ عايدة تقدّره. ما أراه مبتذلاً، تتلقّاه هي كأنّه نشيد الأنشاد. هل الحبّ يُختزل إلى كليشهات؟ أدركت في تلك اللحظة أنّ ما يهمّ في بوح بالحبّ، ليست الكلمات، بل البوح نفسه، فعل التقدّم نحو الآخر والكلام إليه.

لم أكن مجنونًا، أحتفظ بالسيطرة على أفعالي، على نفسي! أحسست بخلاص هائل وكان عليّ أن أتمالك نفسي حتى لا أنطلق بقهقهة عظيمة. وبلغ من قوّة اضطرابي أن خشيت أن تخمّن عايدة ما قد علمتُ. لم تكن تعلم مَنِ القاتل، قصدت الفصل الأخير، لكنّ الجاني لم يكن هو الجاني، الرواية تنتهي بخديعة.

كانت فرصة ثأر جيّد من لوبارو تسنح لي. سلبني رغبة تافهة، جاء دوري لتبنّي قصيدته الليليّة. سنكون متخالصيْن. . .

كانت عايدة تنتظر دائمًا جوابي. بدأ ينتابها شكٌّ، توتّرت ملامحها قليلاً، لكن من طريقتها في النظر إليّ، حدستُ الاعتراف الذي تتمنّى سماعه. أدركتُ فجأة هشاشتها، قلقها. كانت تظنّ أنّها تعرف هويّة الجاني، لكنّها لن ترضى إلّا إذا اعترف، هكذا تنتهي الروايات البوليسيّة. لا بأس، لن أخيّب أملها. فضلاً عن أنّه لا بدّ من ذلك، خارج كلّ روح ثأر من لوبارو، لطفًا بها. كانت تلك لحظة نَذْرٍ سيربطني إلى الأبد. الاعتراف، النذر. عايدة قَدَري (عنوان جميل!). كنت أمام اختيار، أقول أو لا أقول الحقيقة، لكن أيّة حقيقة؟ في عينيها، رغبة مجنونة. حسمتُ:

«نعم، بالفعل أنا».

فهرس

إيدا في النافذة ٧
الجنون الثاني لشهريار ٤٧
معادلة الصيني ٧١
رغبة تافهة في البقاء ٨٧

راوي هذه الرواية، أو أحد الرّواة، يقول، في لحظة من اللّحظات : «في داخل كلّ قارئ شهريارٌ غافياً» ألا يمكن القول كذلك : «في داخل كلّ كاتب شهرزادٌ غافيةٌ»؟ فماذا لو كانت شهرزاد وشهريار، في الخيط الرّفيع من الدّم والقسوة والفنّ والخيال الذي يجمع بينهما، هما النّموذج والنّبض البعيد الحاضر في كلّ رواية وكلّ سرد؟ وماذا لو كانت ألف ليلة وليلة هي نغمة القرار في كلّ صوت من أصوات الرواة وهم ينغمون عالمهم الروائيّ؟ وماذا لو كان ما كُتب من الرّوايات بعدد الحصى والنّجوم ليس سوى تنويع على صوت شهرزاد الهامس بحكاياته في ليل بغداد؟

هذه الرّواية، بتشابك رواتها وتحابك شخصياتها، آتية إلينا من دائرة السّحر التي خلقتها وتخلقها شهرزاد حتّى لا ينقطع السّرد ولا الكلام ولا الفنّ.

عبد الكبير الشّرقاوي

ISBN: 978-9-95389-187-3
9 789953 891873

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣ - ٨٠٣٧٧٨
ص.ب ٤١٢٣-١١ بيروت